الدكتور عدنان بوزان

صَرْخَةُ اللَّيْلِ

شعر

2026

شعر

صَرْخَةُ اللَّيْلِ

الدكتور. عدنان بوزان

شباط ٢٠٢٦

لا تبكي...
فالبكاءُ نشيدُ المدنِ المهزومة
وأنا الوطنُ حين ينحني.
دمعتكِ ليست ماءً
بل خريطةُ منفى
تتشقّق فوق صدري
وكلما سقطتْ
انهارَ جدارٌ من روحي
وصرتُ أرضاً بلا اسم
تسكنها الرياحُ
ولا تعود.

الإهداء

إلى الليل...
حين صار أكثر صدقاً من النهار
وإلى الأصوات التي اختنقت
ولم تجد غير الصمت وطناً.

إلى الذين بكوا سراً
كي لا ينهار العالم
وكتبوا وجعهم
على هامش الحياة.

إلى المنافي التي تسكننا
وإن لم نغادر المكان
وإلى القلوب
التي تعلمت أن تصرخ
حين عجز الكلام.

هذا الديوان
صرخةٌ لمن لم يسمع
ونبضٌ لمن ما زال
يؤمن بأن القصيدة
آخر ما تبقى لنا
من كرامة.

المحتويات

العنوان	الصفحة
مقدمة	١١
١- أنا مثلكم أرتّب خيبتي	١٢
٢- أنتِ قصيدةٌ كاملة	١٦
٣- حين يكون الوداع كرامة	٢٠
٤- لميس.. وصيّة الأرض للسماء	٢٣
٥- لا تُقيموا لي تمثالاً	٢٦
٦- حين يكتسي الخريف بوجهك	٢٩
٧- عند مفترقِ الرحيل	٣٢
٨- حنين، يا قارعة بكائي	٣٥
٩- أنين العاشق في وحدته	٣٨
١٠- أيتها الحياة العابسة	٤٠
١١- حين نامَ القمرُ	٤٣
١٢- حين أضاعني القطار	٤٧
١٣- حين يتكلّم الصمت	٥١
١٤- على سفحٍ لا يعرف الانحناء	٥٤
١٥- بين موتين... أبحث عنكِ	٥٨
١٦- نحن الذين لم يسلموا	٦٣
١٧- الفجرُ المقاوم	٦٧
١٨- حين ينحني الوطن	٧٠
١٩- ما تبقى لنا من الجهات	٧٣
٢٠- ماتَ شهيداً	٧٨
٢١- حين يتذكر الجرحُ اسمه	٨٣
٢٢- الفجرُ لنا	٨٨
٢٣- افترقنا	٩١
٢٤- جهةُ القلب	٩٦
٢٥- أنا والليل... سيرة الظلّ والنجمة	١٠١
٢٦- الدار التي نسيت أسماءها	١٠٦
٢٧- مرثيتي الأخيرة	١١١
٢٨- حين تركتِ قلبي في العتمة	١١٧
٢٩- لا أحد يعودُ كاملاً	١٢٣
٣٠- كنتِ آخرَ ناجٍ منّي	١٢٧
٣١- رحيلٌ وأملٌ متجدّد	١٣٠
٣٢- فنجانكِ صباحي	١٣٣

٣٣- خذوا كأسكم... فحبيبتي قتلت ١٣٦
٣٤- شكراً لكم... قتلتم سُكرةَ الكلمات ١٣٩
٣٥- كنْ وفيّاً للرحيل ١٤٤
٣٦- كأنكِ... قيامةُ المعنى ١٤٨
٣٧- يسقطُ الرغيفُ من فمِ التاريخ ١٥٢

مقدمة

يولد هذا الديوان من منطقةٍ لا ترى، من ذلك التماس الخفي بين الفكر والوجع، حيث تتقاطع الأسئلة العميقة مع التجربة العارية، ويتحول الليل من مجرد زمنٍ معتم إلى كيانٍ تأملي كثيف، يختبر الإنسان في أكثر لحظاته صدقاً وانكشافاً.
«صرخة الليل» ليست انفعالاً لغوياً عابراً، ولا تمريناً جمالياً على الحزن، بل كتابةٌ تنبع من مساءلة الوجود ذاته، ومن تفكيك العلاقة الملتبسة بين الإنسان والعالم، بين الوطن بوصفه ذاكرةً جريحة ومفتوحة، والمنفى بوصفه حالةً داخلية لا تغادر حتى في حضرة المكان. في هذا الديوان، لا تستدعى القصيدة لتجميل الخراب أو تبريره، بل لمواجهته، ولا يستعمل الشعر كملاذٍ عاطفي هش، بل كأداة وعيٍ ومقاومة، وكفعلٍ أخلاقي في زمنٍ يتقن الصمت أكثر مما يتقن الإصغاء.

تتحرك نصوص «صرخة الليل» في فضاءٍ تتقاطع فيه الأسئلة الوجودية مع التجربة التاريخية، حيث يتحول الألم إلى معرفة، ويغدو الحزن شكلاً من أشكال الإدراك العميق، لا علامة ضعف ولا تعبير استسلام. هنا، لا يتكلم الشاعر من موقع الشكوى، بل من موقع الشهادة، ولا يكتب من هامش الحدث، بل من قلبه النابض، محولاً التجربة الفردية إلى مرآةٍ لقلقٍ جمعي أوسع، ولأسئلة لم تجد بعد لغتها النهائية. اللغة في هذا الديوان ليست زخرفاً ولا ادعاءً بلاغياً، بل بناءٌ دقيقٌ للمعنى، مشدودٌ إلى توتر الفكر وصدق الشعور، حيث تقاس الكلمة بقدرتها على الاحتمال بقدر ما تقاس بعمق جرحها.

إن «صرخة الليل» فعلُ كتابةٍ في مواجهة التلاشي، وضد الاعتياد على القسوة، وضد اختزال الإنسان في أدواره العابرة وصوره الجاهزة. هو ديوان يصر على أن الشعر ما زال قادراً على أن يكون ذاكرةً حية، وموقفاً أخلاقياً، وسؤالاً مفتوحاً في وجه اليقين السهل، وأن الكلمة، حين تكتب بوعيٍ فلسفي وحسٍّ إنساني عميق، تستطيع أن تقف في مواجهة العدم، لا لتنتصر عليه، بل لتعريه. من هنا، لا يقدم هذا الديوان إجاباتٍ جاهزة، بل يضع القارئ داخل التجربة نفسها، ويتركه في مواجهة صادقة مع ليله الخاص، لأن الشعر، في جوهره الأبعد، ليس وعداً بالخلاص، بل شجاعةُ النظر طويلاً في العتمة، والإصرار على الإصغاء لما يتبقى من نبض المعنى.

د. عدنان بوزان

أنا مثلكم أرتّب خيبتي

أنا مثلكم ..
لا يعجبني شيء
سوى أن أرتّب خيبتي
كما يرتّب المنفيُّ حقائبه الأخيرة
أن أضع الهزيمة في جيبٍ داخليّ
كي لا يراها أحد
وأن أترك للأمل نافذةً صغيرة
بحجم كفّ أمٍّ تنتظر.

أنا مثلكم ..
أمشي على طرقات الرحيل
لا لأنني أحب السفر
بل لأن الأرض ضاقت
حتى صارت حذائي.

أجادل حبّات الثلج
كأنها شهودٌ على ما جرى
وأساوم البرد
أن يترك لي بعض الدفء
لأكمل هذه الجملة.
أحادث زمهرير الألم
كصديقٍ قديم
تعب من كثرة الزيارات
ولم يعد يطرق الباب.

أنا مثلكم ..
أقلّب صفحات الحزن
كما تقلب خرائط البلاد الممزقة

أبحث عن مدينةٍ
لم تقصف بعد بالكلمات
عن اسمٍ
لم يسحب من بطاقة الهوية
ولم يُرمَ في النسيان.

أغازل النعوش
واحدةً تلو الأخرى
لا حباً بالموت
بل خوفاً من أن يغضب
إن تجاهلناه.
أعدّ أسماء الراحلين
كأنني أعدّ نجوماً
في سماءٍ بلا ليل
وأتعلم كيف يكون الإنسان
أخفّ من التراب
حين لا يجد قبراً يليق به.

أنا مثلكم ..
لا يعجبني شيء...
سوى أن أرى
أعمدةَ دخانٍ تتصاعد
لا لتعلن نهاية العالم
بل لتفضح صمته.
الدخان ليس سحابة
إنه رسائل سوداء
ترسلها البيوت المحترقة
إلى ضميرٍ
لا يفتح بريده.

أنا مثلكم ..
أرى الموت يقترب إلينا
بخطواتٍ واثقة
لا يركض
فليس هناك من ينافسه.
يأتي كموظفٍ رسميّ
يحمل ملفاتنا
مختومةً بالخسارة
ويسألنا بهدوءٍ جارح:
هل نسيتم شيئاً من أحلامكم
أم أغلقتم الباب جيداً؟

أنا مثلكم ..
أحب الحياة
حين تكون عنيدة
حين تخرج من تحت الأنقاض
بوجهٍ مغبرّ
وتقول:
ما زلتُ هنا.

وأكره الحياة
حين تصافح جلادها
وتبتسم.

أنا مثلكم ..
لي وطنٌ من الأسئلة
وبيتٌ من الحنين
وعلَمٌ لا يرفرف
بل يرتجف.
أحمل بلادي في لغتي

وحين أتعب
أجلس على حرفٍ مكسور
وأبكي.

أنا مثلكم ..
لا أملك خطاباً سياسياً
ولا نشيداً وطنياً صالحاً للبثّ
أملك فقط هذا الصوت
الذي يتكسّر
كلما حاول أن يكون جماعياً.

أقول: نحن ..
فأشعر أنني أكذب
وأقول: أنا ..
فأشعر أنني أحمّل نفسي
ما لا تحتمل.

أنا مثلكم ..
ناجٍ بالصدفة
وشاهدٌ بالوجع
وأديبٌ بلا محكمة عدل.
أكتب لأن الصمت
انحاز إلى القتلة
ولأن الكلمات
آخر ما تبقّى لنا
لنثبت
أننا مررنا من هنا.

أنا مثلكم...
إنسانٌ
يحاول
أن يرتّب خيبته
كي لا تتحول
إلى وطنٍ أخير.

أنتِ قصيدةٌ كاملة

أنتِ قصيدةٌ كاملة ...
كتبتكِ الحياةُ على أوراقِ الغيم
وألقتكِ الريحُ في حقولِ القمح
ليتعلمَ العصفورُ كيف يغرِّدُ باسمكِ.
أنتِ لستِ كلمةً تتلى
ولا بيتَ شعرٍ يختتمُ بنقطةٍ أو فاصلة
أنتِ اتساعُ المعنى
وانكسارُ الوقتِ ..
حين يقفُ أمامكِ حائراً
كطفلٍ يكتشفُ البحرَ أولَ مرة.
أنتِ الضوءُ الذي ينامُ في عيونِ النجوم
والندى الذي يغسلُ خطايا الصباح
أنتِ أنفاسُ الغيابِ حين تفيضُ حضوراً
وأنتِ حضورُ العشقِ حين يتسللُ
من بين أصابعِ الغياب.
أكتبكِ كما يكتبُ المطرُ على زجاجِ النوافذ
خطوطاً مرتجفةً، لكنها صادقة
أكتبكِ كما تنقشُ الأرضُ جذورها
في عمقِ الجبال
أكتبكِ كما يدوّنُ القلبُ وصيتهُ الأخيرة
على جدارِ الصمت.
أنتِ القصيدةُ التي لم يجرؤ شاعرٌ
على اكتمالها
كلما حاولَ أن يضعَ قافيةً
تسربتْ من بين يديه
كنهرٍ يرفضُ أن يقيَّد.
فيكِ تتلاقى البحارُ

وتسافرُ المرافئُ بلا سفن
فيكِ يكتبُ الغيابُ رسائلَ العودة
ويعلمُ الموتُ نفسهُ كيف ينهزمُ
أمام ابتسامتكِ.
أنتِ الطفولةُ حين تضحكُ بلا سبب
وأنتِ الشيخوخةُ حين تتذكرُ أن الحب
هو شبابُ الروح
أنتِ المدى الذي يمدُّ يديه للسماء
وأنتِ السماءُ التي تهبط إلى الأرض
لتعانقَ عيوناً وحيدة.
يا قصيدتي الكاملة ..
يا معنىً يتسرّبُ من حدودِ الكلام
لو كنتُ أعرفُ أنني سألقاكِ
لزرعتُ في طريقكِ ورداً لا يذبل
ورسمتُ على وجنتيكِ قناديلَ لا تنطفئ.
أنتِ لستِ قصيدتي فقط
أنتِ اللغةُ ..
التي تلدُ الشعرَ من رحمِ النار
أنتِ الذاكرةُ ..
التي تحفظُ ما عجزَ الزمانُ عن نسيانه
أنتِ السرُّ ..
الذي يفتشُ عنه الحرفُ في المنافي
والمنفى الذي يتحولُ فيكِ إلى وطن.
فلتبقي قصيدتي الكاملة
حتى وإن سقطتِ الكلماتُ في منتصفِ الطريق
فأنتِ الطريقُ
وأنتِ القصيدةُ التي تمشي على الأرض
بخطى لا تشبهُ إلا ذاتها.
أنتِ قصيدتي الكاملة

ديوانُ العمرِ الذي لم يكتملْ إلا بحروفكِ
أنتِ أعمالي الكاملة
أنتِ مطلعُ الشعرِ ومنتهاه
وأنتِ القافيةُ التي لا تُخطئها القلوبُ
مهما تاهتْ في لغاتِ الغياب.
أكتبكِ كما يكتبُ النهارُ على وجهِ الفجر
وكما يكتبُ البحرُ على شواطئه سرهُ الأبدي
أنتِ الوردةُ التي تشربُ ضوءها من جرحِ الغيوم
وتنبتُ في روحي كلما حاولتُ أن أنساها.
أنتِ الحرفُ الذي لا يترجم
والأغنيةُ التي لا تغنى مرتين
أنتِ نداءُ الأرضِ حين تفتقدُ مطرها
وأنتِ مطرُ الروحِ حين يظمأُ قلبي.
أنتِ المدى المفتوحُ على احتمالاتي
المنفى الذي يصيرُ فيكِ وطناً
والغربةُ التي تصبحُ فيكِ بيتاً
ينامُ فيه الشاعرُ بلا خوفٍ ولا قلق.
أنتِ لستِ امرأةً وحسب
بل كتابٌ يكتبني من جديد
كل صفحةٍ فيه تنهضُ من رمادي
وكل سطرٍ يعلمني كيف أكونُ
طفلاً يلهو تحت نافذتكِ.
يا قصيدتي الكاملة ..
يا لغةَ النارِ والندى
إن قلتُ: أنتِ الحبُّ
قال قلبي: بل أنتِ الحياة
وإن قلتُ: أنتِ الحياة
قالت عيناي: بل أنتِ الخلود.
أنتِ قصيدتي

وأعمالي الكاملة
وأنا مجردُ هامشٍ صغيرٍ
على أطرافكِ
لكنهُ هامشٌ سعيدٌ
لأنهُ يجاورُ النص الأعظم.
أنتِ القصيدةُ التي لا تقرأُ حتى النهاية
لأنها بلا نهاية
قصيدةٌ تسافرُ بين الضوءِ والعتمة
بين الجرحِ والندى
وتظلُّ تكتبني
كلما حاولتُ أن أكتبها.

حين يكون الوداع كرامة

في حياتك ...
لا تتسولِ الحبَّ
على أرصفةِ القلوبِ المزدحمة
ولا تطرقْ أبواباً
أوصدتها الريحُ في وجهِ النبض.
فالحبُّ لا يعطى صدقةً
ولا يقاسُ بمكيالِ الشفقة؛
الحبُّ وطنٌ أو لا يكون
سماءٌ تفتحُ للروح
أو جدارٌ ينهارُ على كاهلِ العابرين.

كن كريماً بذاتك ...
قِفْ كما يقفُ الجبلُ في وجهِ الريح
ولا تنحنِ إلا ليقطفَ الفجرُ من جبينك
قبلةَ الضوء
ولا تمدَّ يدك إلا إلى يدٍ تعرفُ كيف
تحملُ عنك تعبَ الطريق.

وقلْ: وداعاً، حين تشعرُ أن المكان
لم يعد مكانك؛
حين تتحول الطاولةُ التي جمعتكم
إلى خشبٍ باردٍ
وحين تصيرُ المقاعدُ منفى
وحين يصبحُ الصمتُ بينكم
أعلى من كل الكلمات.

لا تخف من الوداع
فالوداعُ ليس موتاً

بل ولادةٌ جديدةٌ لذاتك
وخروجٌ من ضيقِ الجدران
إلى اتساعِ السماء.

الحبُّ لا يشبه الاستجداء
الحبُّ كبرياءٌ وزهو
الحبُّ أن تمشي مرفوعَ الرأس
ولو كنتَ مثخناً بالغياب؛
أن تقول: كنتُ هنا
كنتُ عاشقاً كما يليقُ بالشمسِ أن تعشقَ البحر
ثم تمضي
دون أن تلتفتَ إلى ظلٍّ لا يستحقُّ خطاك.

لا تطاردْ قلباً هارباً
ولا تمسكْ بيدٍ ترتجفُ منكَ فراراً
اتركهم يرحلون؛
فالذين يرحلون بإرادتهم
لم يكونوا يوماً لك
والذين يبقون
يبقون لأنهم شريانك.

في حياتك ...
كنْ شبيهَ القصائدِ التي لا تفسَّر
وشبيهَ الأشجارِ التي لا تغادرُ جذورها
وشبيهَ الماءِ الذي لا يتسولُ نهراً
ليعرفَ ذاته.
كنْ كالأفق
يستقبلُ الطيورَ جميعاً
ولا يغلقُ حدودهُ في وجهِ غريب.

وتذكر:

أنك حين تقولُ "وداعاً"
لا تخسرُ سوى قيدٍ
أما نفسك
فهي المكسبُ الأعظم
هي الحريةُ التي لا يساويها
حبٌّ يباعُ على الأرصفة.

لميس.. وصيّة الأرض للسماء

لميس ...
يا سنديانةَ عمري التي تجابهُ الرياحَ العاتية
جذوركِ تضربُ عميقاً في صخرِ الروح
وأغصانكِ تعانقُ الغيمَ العالي
كأنكِ وصيّةُ الأرضِ للسماء
وكأنكِ النداءُ الذي لا ينكسر.

لميس ...
يا زيتونةً عفرينيةً خضراء
أوراقكِ أملٌ لا يشيخ
تقاومينَ الموتَ والطغاة
كأنكِ آخرُ صلاةٍ للأرض
وأولُ نشيدٍ للحرية.

لميس ...
يا نخلةً باسقةً في صحراءٍ عطشى
تتحدينَ بردَ الشتاءِ ولهيبَ القيظ
وتثمرينَ حباً فوقَ الرماد
وتبسطينَ ظلالكِ على المتعبين
كأنكِ نبوءةُ الصبرِ التي لا تخون.

لميس ...
يا كوبانيةَ الروح
حين تمشينَ فوقَ ركامِ المدن
تضيئينَ الدربَ بضحكةٍ من بقايا الحلم
وتعيدينَ للبحرِ ملوحتهُ الأولى
وللسماءِ زرقتها الطفولية.

أقرأكِ ميلادَ عشتارَ أربيل

نوراً يخرجُ من رحمِ الأسطورة
قصيدةً لا تنتهي
أغنيةً علمتِ العصافيرَ كيف ترفضُ الأقفاص
وأورثتِ الجبالَ معنى الكبرياء.

لميس ...
يا زهرةً نبتتْ من صخورِ القلعة
تحرسينَ الذاكرةَ من النسيان
وتزرعينَ في كلِّ حجرٍ قصيدة
كأنكِ الوعدُ القديمُ الذي لم يمت
وكأنكِ النهارُ الذي لا يطفئهُ ليل.

لميس ...
أنتِ الماءُ حين يجفُّ الحقل
وأنتِ الخبزُ حين يطولُ الجوع
أنتِ القصيدةُ التي تعلمني
أن العشقَ مقاومة
وأن الصبرَ جناحٌ
يحملنا فوقَ الخراب.

لميس ...
يا شجرَ الزيتون، يا النخيل، يا السنديان
يا وجعَ الأرضِ وشفاءها
يا لغةَ الفجرِ حين يولدُ من رحمِ الليل
يا امتدادَ الحلمِ من عفرينَ إلى كوباني
ومن جبالِ أربيل إلى صحراءِ الفرات.

أكتبكِ كما يكتبُ المطرُ وصيتهُ للأرض
وأكتبكِ كما تكتبُ الريحُ نشيدها للأشجار
وأكتبكِ كما يكتبُ الشاعرُ اسمهُ
على صخرةٍ تأبى أن تهزم.

لميس ...
أنتِ قصيدةُ العمر
وأغنيةُ المقاومة
وأنتِ الوطنُ حين ينهضُ من رمادِه
ليقولَ للطغاة:
هنا أرضي
هنا حياتي
وهنا الحبُّ الذي لا يهزم.

لا تُقيموا لي تمثالاً

لا تُقيموا لي تمثالاً ...
ولا ترفعوا لي رايةً من برونزٍ أصمّ
دعوا اسمي يتسلل كالماء
في شقوق التراب
وفي رائحة الخبزِ الخارج من تنانير الفقراء.

لا تُقيموا لي تمثالاً
فأنا لستُ حجراً يبتسم للمارّين
ولا لافتةً على طريقٍ
يمرّ بها تجارُ الكلمات
أنا حكايةُ قمحٍ
لم يعرف الارتجافَ حين عضته يدُ الجفاف
وأنا صرخةُ أمٍّ
لم تملّ الانتظار عند أبواب السجون
وأنا جرحُ وطنٍ
يوقظُ في كل طلقةٍ
أنفاسَ الأغاني القديمة.

لا تُقيموا لي تمثالاً
فأنا ما زلتُ أمشي في الأزقّة
أصافحُ وجوهكم المتعبة
وأجلسُ في المقاهي
كظلٍّ لحكاياتكم التي لم تكتب بعد
أنا الطفلُ الذي تركتم أحلامه عند أطراف البحر
كي تعودوا إلى قواربكم
دون أن تلتفتوا إليه
وأنا العائدُ الآن
بأشرعةٍ من صبرٍ

وبحبرٍ من دمٍ
لأكتب ما لم يجرؤ غيري أن يكتبه.

لا تُقيموا لي تمثالاً
اجعلوا وصيّتي أغنيةً
تسافر من حنجرةٍ إلى حنجرة
واجعلوا قبري هو الأرضُ كلها
كلُّ شجرةٍ مثمرةٍ على سفح جبلٍ
هي عظامي
كلُّ وردةٍ على قبر أمٍّ مجهولةٍ
هي قلبي
كلُّ بيتٍ طينيٍّ
أقامته أيديكم
هو وجهي الحقيقي.

لا تُقيموا لي تمثالاً
فأنا لم أغب
أنا في كل يدٍ تزرعُ
وفي كل يدٍ تقاوم
أنا في المطرِ حين يعانقُ عشبَ التلال
وفي الريحِ حين توقظُ أساطيرَ الأجداد
أنا في لهفةِ طفلٍ يعلقُ حقيبة المدرسة
ويحلمُ أن يكمل الدرس بلا انقطاع
أنا في الشارعِ الذي يحملُ خطاكم
وأحلامكم
وسؤالكم الأبديّ عن غدٍ عادل.

لا تُقيموا لي تمثالاً
ولا تبنوا لي ضريحاً
يؤمّه السياسيون في ذكرى الخطابات

أريد أن أكون في القلوب
لا في الميادين
في ألسنة الأطفال
لا في منصّات الإعلام
في حبر الكتّاب
لا في رخام المتاحف.

أنا وصيّةُ الغائبين العائدين
ولستُ غائباً
أنا جذوةٌ في دمكم
ونقشُ صمتكم
وصدى أغنياتكم المنسيّة
أنا باقٍ في قمحكم
وفي ماء بئركم
وفي وجوهكم التي لا تعرف الانكسار
فإن أردتم قبري
فاكتبوا على رصيف الوطن:
«هنا لم يمت أحد،
هنا استيقظت حياةٌ
من كلّ دمعةٍ وصَرخةٍ وحرفٍ».

حين يكتسي الخريف بوجهك

في البدء ...
حين كانت الشمسُ تتثاءبُ كعاشقةٍ متعبة
وكانت الريحُ تدندنُ بأغنيةٍ
لا يعرفها إلا العابرون
جئتِ...
كأنكِ الوعدُ القديم
الذي خبأته الأرضُ في جذور أشجارها
كأنكِ صلاةٌ طويلة
تنتظر جوابها بين صمت الغيوم.

كنتِ غيمةً تمشي على قدمين
لا تخشين السقوط
تخبّئين في حضنكِ المطرَ
وفي عينيكِ حدائقَ لا تعرف الفناء.

يا امرأةً من خريفٍ يكتسي بالدفء
أنتِ لستِ ربيعاً يزهو بالزهر
ولا صيفاً يلهث بالعطش
أنتِ اللمسةُ التي تعيدُ للبرد قلباً
وتزرعُ في الرماد جمرةً لا تخبو.

حين ألقاكِ ...
أفهمُ أن الوداعَ فنٌّ آخر من فنون البقاء
وأن السقوط ليس انكساراً
بل انحناءُ ورقةٍ
كي تلمسَ ترابها الأول.

كلُّ ورقةٍ تصفرّ على غصنٍ عتيق

تكتب وصيتها بلغة الريح:
«إنْ كنتُ راحلةً عن عينيه،
فإنني أزهرُ في قلبه.»

أيتها القادمةُ من احتمالات الغروب
علّمتِني أن لكل نهايةٍ لحناً
وأنّ كلَّ سقوطٍ يحملُ بذرةَ قيامة.

لا أرتّب فصولي بعدكِ
فأنتِ الفصلُ الذي يعبُرُ دون تقاويم
أنتِ التوقيتُ الذي لا يخضعُ لساعة
أنتِ البدايةُ التي تضحكُ في وجه النهاية
وأنتِ النهايةُ التي تفتحُ باباً لولادةٍ جديدة.

يا دهشتي
ويا يقيني الذي يختبئُ في ارتجاف أصابعي
كلما مرّ طيفكِ
اشتعلَ الموقدُ في صدري
وانهارَ البردُ أمام دفءِ يديكِ.

أنا وأنتِ
نكتبُ قصيدتنا على أوراقٍ صفراء
ونتركها للريح
كي تعلقها على أبواب الشتاء القادم.

فليأتِ الشتاءُ إذن
وليدقَّ أبوابنا بعواصفه
لن نخاف
ما دامت في أصابعكِ شرارة
وفي صدري خشبٌ يابس
لا يشتعل إلا بكِ.

كلُّ مطرٍ سيهطلُ
سيكون غسلاً جديداً لقلبي
وكلُّ ورقةٍ تسقطُ
ستحملُ اسمكِ كقسمٍ لا ينكسر.

نحنُ خريفنا الأبديّ
الحبُّ الذي لا يغادر
الحبُّ الذي يعرفُ كيف يتلون
لا ليموت
بل ليولدَ من جديد
في كل عاصفة
وفي كل مطر
وفي كل غصنٍ يحنّ إلى أوراقه.

عند مفترقِ الرحيل

تذكرتُ أغنيةً لم أسمعها من قبل
لكنها كانت تقيمُ في صوتِكِ منذ الطفولة
وتذكرتُ وجهي حين كنتِ مرآتي
وحين كنا نمشي على جانبي شارعٍ واحدٍ
يقسمُ الوقتَ بيننا
كأنه يعلمنا أنَّ الحبَّ طريقٌ يمرُّ
ولا يصلُ إلا بعد أن نضيع.

كنتِ تسألينني:
هل ماتَ منا أحدٌ
حين عبرنا شاطئَ اللقاء؟
فأقولُ: كلانا
مات قليلاً كي يولدَ في الآخر
كلانا صارَ طيفاً من ملحٍ
على فمِ البحر
وصرنا معاً غيمةً
تبحثُ عن مطرٍ يصدقها.

في أول العمر
كبرنا كما تكبرُ أشجارُ الروح
من دون أن تدري أنّ جذورها
تتناسلُ في جرحِ الأرض.
ماذا فعلنا لنستحقّ هذا الرحيل؟
هل كنا أغنيةً ضاقتْ بنا النغمةُ
أم كنا ناياً يذبحهُ الهواءُ
كلما حاولَ أن يتنفّس؟

أنا... أم كنتُ أنتِ؟

لم أمت بعدُ
لكنني أكتبني على جدارِ غيابكِ
كأني أنقشُ اسمي في هواءٍ
لا يلمسه أحد.
هل متِّ أنتِ؟
لأمضي وحيداً إلى لغتي
كما يذهبُ السجناءُ إلى ساحةِ السجنِ
بحثاً عن برتقالةٍ من سماءٍ بعيدة
برهةٌ تكفي لينسوا وجوهَ النساء
وبرهةٌ تكفي لينتحروا
من جمالِ الشواطئِ خارجهم.

ابتعدي قليلاً
لأمضي وحيداً إلى لغتي
في صباحٍ من البنّ
أسألكِ: هل ماتَ منّا أحد؟
تمهّلي، تمهّلي
لأحملَ عبءَ النشيدِ الطويل
على كتفيّ
وأجلسَ قلبي على قدميكِ
كي تمشي أمامي
وأتبعكِ في هبوبِ النوارس.

خذيني إلى اليأس
كي أعرفَ كيف تحبكِ النفسُ
خذيني إلى اليأس
كي أعبرَ النهرَ فيكِ وأهلك
فما الحب إلا الرحيلُ الطويلُ الطويلُ
إلى الحبّ
ولا يستطيعُ الرحيلَ الطويلَ

سوى عاشقٍ يخبئُ في جيبهِ
خريطةَ التيه
ويعرف أنّ الطرقَ كلها
تنتهي في عينيكِ.

يا امرأةَ الموج
يا زهرةَ الليلِ التي تفتحُ صدرها للغرق
يا من تخرجينَ من غيابكِ
مثلَ طائرٍ عادَ من المنفى
يبحثُ عن عشهِ الأول.
قلبي يائسٌ
ويأسي يسترقُ السمعَ من فراغكِ
كأنه يكتبني من جديدٍ
لأعودَ إليكِ في آخر الطريق.

خذيني...
خذيني إلى النهرِ فيكِ
إلى الليلِ فيكِ
إلى آخرِ البحرِ حينَ يفيضُ على جسدي
خذيني كي أتعلمَ أنّ الحبَّ
ليس إلا أن نضيعَ معاً
ونبعثَ معاً
في لغةٍ أخرى
أوسعَ من الأرض
وأرحبَ من الأبد.

حنين، يا قارعة بكائي

حنينٌ، يا قصيدتي المسائية
ويا خصلةَ الليلِ الحزينة
حين تنطفئ المدنُ من صخبها
وتعودُ الأرواحُ كطيورٍ متعبةٍ
إلى أعشاشها القديمة
تغسلُ جناحيها بندى الغياب
وتجلسُ على مقاعدَ خشبيةٍ
من ذاكرةٍ ينهشها الزمن

حنين، يا دموع الليل اليتيمة..
تتفتحُ الذكرياتُ كماءٍ باردٍ
على جرحٍ قديم
كأنها يدُ أمٍّ تضعُ راحتها
على جبين طفلٍ محموم.
في الليل
يجلسُ الفقدُ إلى جانبي
كرفيقٍ قديم
يشعلُ سيجارته الأولى
ويضحكُ بمرارة
ثم يتركُ الرمادَ يغمرُ الطاولة.

الخساراتُ
كمقاعدَ أماميةٍ في مسرح الذهن
تجلسُ بصمتٍ أنيق
كطيورٍ جميلةٍ بلا أجنحة
كأنها موسيقى ناعمةٌ
تخرجُ من أعماق الروح
توقظُ فينا ألواناً من حنين

وتعلمنا أن للحزنِ وجهاً آخر
شفيفاً، ناعساً ...
كإشراقةِ الصباح
حين يولدُ من رحمِ العتمة.

أيتها القصيدة ...
يا ابنةَ الليلِ المصلوبةَ على وتر العاطفة
تعالي
لنكتبَ الحنينَ كما لو أنه صلاة
ولنغنيه كما يغني العاشقُ
لشرفةٍ لا تفتحُ أبوابها.
فالحب، يا رفيقةَ الحبر
ليس سوى طريقٍ طويلٍ
نضيّعه عمداً
ثم نعودُ إليه كلَّ مساء
لأننا لا نملكُ ملاذاً آخر.

أذكركِ...
حين كان للقمرِ نافذةٌ في غرفتي
وحين كانت يدكِ خيطَ ضوءٍ
يمتدّ على كتفي
أذكركِ...
كما يذكرُ الغريبُ أسماءَ الشوارع
التي لم يمشِها
وكما يذكرُ السجينُ
أصواتَ المفاتيح وهي تبتعد.

أنتِ يا حنين ...
وجهُ الغيابِ المتجمّلُ بالدموع
ونبرةُ الصوتِ حين ينكسر

وأنتِ الرائحةُ التي تسكنُ قمصاني
حتى وإن غسلتها ألفَ مرّة.
أنتِ كتابي الذي لا ينتهي
وسؤالي الذي لا جوابَ له
وميلادُ حزني الأول
حين أفلتِ من يدي كنجمةٍ
وتواريتِ خلف الغيم.

فدعيني أكتبكِ الآن:
أكتبكِ مثل نهرٍ يفيضُ على الخراب
مثل قنديلٍ ينامُ في عاصفة
مثل عاشقٍ يفتشُ في جيوب الغياب
عن تذكرةِ قطارٍ لم يصل.

قصيدتي ...
يا وجهَ المساء حين يتجلّى
ويا ظلَّ روحي حين يتكسّر
إنّني أتعلم منكِ
أن الخسارةَ ليست موتاً
بل فنّاً من فنون الحياة
وأن للحزنِ أيضاً جناحين
يطيران بنا نحو الجمال
كما يطيرُ الفجرُ من تحت أقدام الليل.

فإذا جاء الصباح
سنقول:
ما أجملَ أن يولدَ الضوءُ من رحم الظلام
وما أجملَ أن يبقى الحنينُ
رغم الخسارات كلها
قصيدةً لم تكتمل بعد.

أنين العاشق في وحدته

أحبكِ جداً...
إلى أنْ يذوبَ الجليدُ عن وجوهِ الجبالِ البعيدة
إلى أنْ يستيقظَ الليلُ من عتمتهِ
ويَمدَّ لي يدَ الصباحِ كي أعودَ إليكِ.

ما زلتُ أطربُ في عينيكِ
كأن العيونَ صلاةٌ موسيقية
كأن الرؤيةَ دعاءُ عاشقٍ
يمحو بها آثارَ المنافي عن قلبهِ.

لا قلبَ لي بينَ يديكِ
قلبي طائرٌ ضالٌّ في فضائكِ
ينامُ على كتفيكِ
كما ينامُ الحرفُ في كتابٍ
لم تكتبْ صفحتهُ الأخيرةُ بعد.

ولا دربَ يحملُني في الرحيلِ؛
أنا الطريقُ الذي ضاعَ في نفسهِ
أجمعُ شظاياياَ من أرصفةِ العاشقينَ
وأصوغُ منها ناياً يبكي في الليلِ
ليقولَ للعالم:
ما من موتٍ بلا صراخ
ولا من صراخٍ بلا أنينٍ
إلا أنينُ العاشقِ في وحدتهِ.

أنا ألملمُ جراحي في طريقِ العاشقينَ
أغسلها بندى الذاكرة
أضمدها بكلمةٍ منكِ
أو نظرةٍ تحملُ بردَ الماءِ

ودفءَ الأرضِ في آنٍ واحدٍ.

أحبكِ جداً...
كما يحبُّ البحرُ أرصفةَ المدنِ
حينَ يجيءُ المساءُ ويتركُ أمواجهُ على أعتابها
كما يحبُّ الغريبُ وجهَ أمهِ في حلمٍ بعيدٍ
كما يحبُّ الحجرُ ظلَّهُ
حين تلمسهُ يدُ الشمسِ بعدَ طولِ بردٍ.

أحبكِ جداً...
حتى تنفجرَ اللغةُ في فمي
كأنها كواكبُ من نورٍ
حتى ينهضَ الوقتُ من رمادهِ
ويعودَ طفلاً
يبحثُ عنكِ في الأزقّةِ القديمة.

يا صراخي الذي بلا أنينٍ
ويا أنيني الذي بلا صدى
يا آخرَ ما تبقّى منّي
حين أخلعُ عنّي الأسماءَ والوجوه
أكتبكِ كي أكونَ
وأكونُ كي أكتبكِ
كأنّ الحبَّ آخرُ ما في اللغةِ
من معنىً للنجاة.

أحبكِ جداً...
إلى أنْ يذوبَ الجليدُ عن أطرافِ أصابعي
إلى أنْ ينبتَ في قلبي ربيعٌ
يمشي على قدميكِ
إلى أنْ أجدَ فيكِ وطناً
لا يخذلُ الغريبَ
ولا يبيعُ الليلَ للغيمِ
ولا الصبحَ للغياب.

أيتها الحياة العابسة...

أيتها الحياةُ العابسةُ ...
أخرسي صريرَ بابِكِ
فقد تعبتُ من طَرْقِ المدى
ومن نداءٍ لا يجيبُه سوى الصدى.

أيتها الحياةُ ..
كم مرّةً جلستُ على مقاعدِ الصبرِ
أراقبُ ظِلّي وهو يشيخُ على الأرصفةِ
ويكتبُ على جدارِ الغروبِ مذكراتِ المساءِ.
أنا لستُ نبياً لأصبرَ
ولا قاتلاً لأنتصرَ
أنا عاشقٌ أضاعَ وجههُ في مرايا الخوفِ
وأضاعَ صوتهُ في ممراتِ الأسئلةِ.

في الخارجِ ..
تزدحمُ الصرخاتُ ...
كما تزدحمُ الأبوابُ في بيتٍ قديمٍ
وتتشابكُ الأرواحُ
كخيوطِ دخانٍ هاربةٍ من موقدِ الحنينِ.
والليلُ طويلٌ... طويلٌ
حتى يكادَ يغمضُ عينيهِ من التَّعبِ
ويسندُ رأسهُ على كتفِ القمرِ
كشيخٍ أنهكَ السهرُ.

ونهاري؟
نهاري على حافةِ الغروبِ
يُدندنُ لآلامي بأغنيةٍ مكسورةٍ
يرسمُ على وجهي خطوطَ الخيبةِ

كفنانٍ سئمَ لوحةً لم تكتملْ.

وأفكاري ..
تتسكعُ على حدودِ الضياعِ
كلاجئةٍ تبحثُ عن سماءٍ
لا تسقطُ فيها المطراتُ حزناً
ولا تتدلى الغيومُ فيها مشانقَ للذكرياتِ.

أيتها الحياةُ
ماذا تريدينَ منّي؟
أأعتذرُ لأنّي أحببتُكِ دون إذنٍ من خيباتي؟
أم أقولُ إنّي زرعتُ في صحرائِكِ وردةً
فأنبتَ قلبي شوكاً؟

يا وجهي المتعبَ من مرايا الأمسِ
هل ما زلتَ تُشبهني؟
أم أنّك صرتَ ظِلَّ مَن كان قبلي؟
لقد تكسرَ الزمنُ في يديَّ
ككوبِ ماءٍ لم يعرفْ الشربَ ولا الارتواءَ.

كنتُ أبحثُ عن دفءٍ
في كتبِ الفلاسفةِ
وفي صلاةِ الأمهاتِ
وفي نوافذِ المدنِ التي نامتْ باكراً
لكنّ الريحَ كانتْ أسرعَ من قلبي
وأقسى من يقيني.

أيتها الحياةُ
كم من حلمٍ دفنتِ في وضحِ الضوءِ
وكم من وطنٍ غرقَ في دمعةِ أمٍّ لم تكملْ دعاءها
وكم من عاشقٍ

انتظرَ حبيبتهُ ..
على رصيفٍ لم يصلْ إليه القطارُ أبداً.

أنا لستُ عدواً لكِ
لكنكِ كنتِ لي خصماً في حروبٍ لم أخترها
وكنتِ لي أُماً تنسى أبناءها في العواصفِ
وتتركُ قلوبهم تتبعثرُ بين أصابعِ القدرِ.

تعبتُ...
تعبتُ من تشييعِ الأيامِ إلى مثواها الأخيرِ
ومن إقامةِ العزاءِ في كلِّ صباحٍ
ومن ترديدِ الأملِ كنشيدٍ لم يعدْ أحدٌ ينصتُ له.

أيتها الحياةُ
أغلِقيني...
ككتابٍ انتهى
أو كقصيدةٍ قالَ شاعرها كلَّ ما يريدُ
ولم يبقَ في صدرِه سوى تنهيدةٍ
تبحثُ عن صدرٍ يحتملها.

أيتها الحياةُ
إن عادَ النهارُ فلا توقظيني
دعيني أنامُ على وسادةِ الغيمِ
أحلمُ بعالمٍ أقلَّ ضجيجاً
وأكثرَ إنسانيَّةً.

حين نامَ القمرُ

أيتها الحياةُ العابسةُ
هل تسمعينَ أنينَ النوافذِ في المساءِ؟
إنها مثلي
تتكئُ على ظلالِها
وتخفي دموعها خلفَ زجاجٍ باردٍ كقلبي.

لقد ضجرتُ من التفسيراتِ البليدةِ للقدر
ومن صمتِ اللهِ حين أسألهُ عن المعنى
ومن بشرٍ يبتسمونَ كي ينجوا من دموعِهم.

كم مرّةً وعدتِني أن تفتحي لي نافذةً نحو الضوء
فأيقظتِ في وجهي ريحاً
وأغلقتِ البابَ في وجهِ قلبي؟

أنا لم أعدْ أطلبُ منكِ
سوى هدوءٍ يشبهُ الموت
ولا حياةً إلا تلكَ
التي تأتي من صمتٍ يليقُ بالنهايات.

يا أيتها الحياةُ
لقد خذلتِ حتى الزمان
صارَ يمشي مكسورَ الخطى
يحملُ على كتفِه خيباتِنا
كعابرٍ في جنازةِ أحلامه.

كأنّ العمرَ رصيفٌ باردٌ
تنتظرُ عليه الوجوهُ قطاراتٍ لا تأتي
ويعودُ المساءُ
ليجمعَ ما تبقّى من خطواتِهم

ويعيدها إلى العدم.

أيتها الحياةُ
كنتِ يوماً وعداً أخضرَ
واليومَ صرتِ خريفةً من وجعٍ وأوراقٍ ذابلة.
كنتِ أغنيةَ الطفولة
فصرتِ نشيدَ وداعٍ تتردّدهُ المقابر.

كم من ليلٍ علمتِنا فيه الخوف
وكم من صباحٍ أغرقتِ فيه أحلامَنا بالبرد.
نزرعُ الفرحَ
فتنبتُ على أكتافِنا أشواكُ الانتظار
ونحملُ النورَ في أيدينا
فتكسرينَ المصباحَ قبلَ أن نصلَ إلى الطريق.

يا أيتها الحياةُ
مَن أنتِ حينَ لا تكونين؟
هل أنتِ الغيابُ الذي يسكنُنا؟
أم الغيمُ الذي نطاردهُ ونحنُ عطاشى؟

أنا لم أعدْ أثقُ بعينيّ
فكثيراً ما أرى الأملَ
فيتبددُ مثلَ دخانٍ على أصابعِ الريح.
وكم مرّةً ظننتُ أنّي وصلتُ
فوجدتُ أنَّ الوصولَ خدعةٌ
تحترفُها الطرقاتُ الميتة.

أيتها الحياةُ
أنا لا أكرهكِ...
لكنّي أكرهُ ما تفعلينَ بالقلوبِ النقية.
تُهشّمينَها برفقٍ

ثمّ تتركينها تبحثُ عن السببِ
في الكتبِ القديمةِ
وفي رسائلِ الغائبين.

يا لِقسوتِكِ حينَ تبتسمينَ
كأنّ الفرحَ مؤامرةٌ على البؤس
وكأنّ الضحكَ اعترافٌ بالهزيمة.

أيتها الحياةُ
هل تعلمينَ ...
أنّي ما زلتُ أحبكِ رغمَ كلّ شيء؟
رغمَ وجعِكِ ..
وخيانتكِ ..
وموتِ أحلامي؟
أحبكِ لأنكِ — رغم قسوتكِ —
تمنحينني فرصةَ الحنين.

الحنينُ إليكِ
إلى وجهي القديمِ
إلى صوتي الذي كانَ يضحكُ بلا خوفٍ
إلى ظلّي حينَ كانَ يعرفُ الطريقَ إلى قلبي.

يا أيتها الحياةُ
كلُّ ما فيكِ مؤلمٌ وجميلٌ في آنٍ واحدٍ
كقصيدةٍ لم تكملها الآلهةُ
فأكملها شاعرٌ مكسورُ الجناح.

أنا لا أطلبُ منكِ خلوداً
بل لحظةَ صدقٍ في زمنٍ من الأقنعة
ولحظةَ صمتٍ تفتحُ فيها السماءُ قلبها
وتقولُ لي: «لا بأس، لقد نجوتَ من نفسك».

أيتها الحياةُ العابسةُ
دعيني أستريحُ من كذبِ المعنى
فأنا لم أعُدْ أؤمنُ بالشروقِ
ولا أرتجفُ من الغروب.
دعيني أُغلقُ نافذتي على هذا المساءِ
أُطفئُ ما تبقّى من ضوءٍ
وأقولُ للعمرِ:
«لقد كانتْ رحلتُنا طويلةً،
لكنّنا لم نصلْ إلى أحد».

ثم أنحني
أضعُ يدي على قلبي
وأهمسُ:
يا حياةُ
شكراً لأنكِ علّمتِني كيف أموتُ واقفاً...
وكيفَ أكتبُ من رمادِكِ وردةً
تضيءُ العتمةَ في آخرِ الصفحة.

حين أضاعني القطار

يا ليلُ ...
ما أبعدَ الطرقاتِ عن خُطوي
وما أضيقَ المسافاتِ حين لا ظلَّ لي في المساءِ.
كنتُ أعدُّ النجومَ كما يعدُّ الغريبُ أيامه
وأزرعُ في حقولِ الوقتِ نسياناً لا يثمرُ سوى الوجع.

تؤلِمني الذكرياتُ كأغنيةٍ قديمةٍ
تعودُ من مقهى الذاكرة
تجلسُ على طاولتي
وتسألني:
"هل ما زلتَ تكتبُ لها؟"

أُشيحُ بوجهي عن السؤال
وأتظاهرُ بالكتابة
لكنّ الحروفَ خائفةٌ من فمي
تتعثرُ بين ضلوعي
وتسقطُ على الورقِ ميتةً
كطيورٍ أُصيبتْ في منتصفِ الحلم.

يا امرأةً كانتْ تُعلّمني المطر
وتسكبُ الضوءَ في فنجانِ الصباح
كيف غدوتِ سحابةً تمرُّ فوقَ قلبي
ولا تمطر؟
كيف صارَ الحنينُ شرفةً مغلقةً
تطلُّ على بحرٍ لا يعرفُني؟

في قطارِ الليل
كنتُ أراكِ بين المقاعدِ البعيدة
تتدلى من شَعرِكِ رائحةُ الغياب

وتلوّحينَ لي بأصابعٍ من ضباب.
ناديتُكِ
لكنّ الصدى عادَ إليَّ غريباً
كأنّ المسافةَ بيننا
عمرانِ لا يلتقيان.

يمرُّ الزمانُ كعجوزٍ فقدَ ذاكرته
ينسى وجهي
ينسى وجعَكِ
ويواصلُ السيرَ نحوَ ليلٍ بلا ملامح.
تتساقطُ الأيامُ كأوراقِ الخريفِ
على مائدةِ الانتظار
وأنا أعدُّ خساراتي
كما يعدُّ البحرُ ملوحتَه.

كم مرّةٍ قلتُ للنومِ:
"خُذني، فقد تعبتُ من الحُلمِ بها"،
فخذلني النوم
وأعادني إلى مقعدي الأول
في محطةِ الذكرى
حيثُ يجلسُ الغيابُ مرتاحاً
ويقرأُ وجهي ككتابٍ مفتوحٍ على الحنين.

ثلثا عمري سرقَهُ الانتظار
والثلثُ الباقي
يستجدي نجمةً لا تزورُ نافذتي.
كلُّ شيءٍ يشيخُ حولي
إلا صورتها
ما زالتْ في القلبِ
كعطرٍ عالقٍ على وشاحِ المساء.

أصمتُ
فلا يخرجُ من فمي سوى ارتجافِ الريح
ولا يسمعني أحدٌ سوى جدرانٍ
تعرفُ كم مرّةً بكيتُ دونَ صوت.

غريبٌ أنا
حتى في دفءِ أهلي
غريبٌ كحُلمٍ نُسيَ في منتصفِ النهار
غريبٌ كقصيدةٍ بلا قارئٍ
كحُبٍّ بلا عنوان.

يا أنثى المطر
أتعرفينَ ما معنى أن تبقى الكلماتُ في صدري
كحجارةٍ على نهرٍ يابس؟
أن تتهجى شفاهي اسمَكِ
كلما مرَّ الغيمُ فوقَ نافذتي؟

إنّي أراكِ في كلِّ الوجوه
ثم أعودُ إلى وحدتي
كمن يعودُ إلى موتهِ القديم.
المدنُ تمضي
والقطاراتُ تمضي
وأنا ما زلتُ على الرصيف
أنتظرُ قطاراً لا يأتي
وحباً
لم يَعُدْ يُشبهُ نفسَه.

تساقطَ من حولي كلُّ البشر
كأنّ الخريفَ اختارَ أرواحهم أوراقاً
حتى أنتِ —
أقربَ الأعزّاءِ —

كنتِ آخرَ الغياب.

لكنّ الأشجارَ — رغمَ العراء —
ما زالتْ متمسّكةً بأغصانِها
تشهدُ أنّ الأملَ لا يُقتل
بل ينامُ قليلاً
ثم يستيقظُ على صوتِ القصيدة.

يا وجعي الجميل
يا ندمَ الأيامِ التي لم نعِشْها
إنْ عادَ القطارُ يوماً
سأتركُ له وجهي على النافذة
وأقولُ له:
خذني إلى حيثُ كنا
قبلَ أن يشيخَ الحُلم
وقبلَ أن يصبحَ الحنينُ
وطناً آخرَ للمنفيّين.

حين يتكلّم الصمت

وحدهُ الألمُ ..
حينَ يشتعلُ في الأعماق
يضيءُ ما لا تضيئهُ الشموس
ويعيدُ ترتيبَ القلبِ
على مقاسِ الوجع.

هو ليسَ كلمةً
بل رعشةُ صمتٍ
تجري في العروق
وحينَ نحاولُ أن نكتبهُ
نكتبهُ لننجو منه
لا لنعرفه.

الألمُ —
ذلكَ الغريبُ المقيمُ فينا —
يذكرنا أنَّ الإنسانَ
لا يكتملُ إلا حينَ يكسر
ولا يفهمُ نفسهُ
إلا حينَ يوجع.

وحدهُ الحنينُ
يعرفُ الطريقَ إلى القلبِ
من دونِ بوصلة
يدخلُ مثلَ نسمةٍ
في ليلٍ بعيد
ويوقظُ أسماءً نائمةً
في ذاكرةٍ لا تنام.

الحنينُ لا يزورنا ليرأف

بل ليقولَ:
ما زلتم أحياء
وأنَّ فيكم شيئاً
لم يمت بعد.

في المنفى ..
حينَ ضاقتْ المدنُ
واتسعتِ الغربة
وجدتُ الورقَ أوسعَ من الوطن
وأصدقَ من العابرين.

صرتُ أكتبُ كما يتنفسُ الغريق
أضعُ رمادي على السطور
وأُخفي في الحبرِ
ما لم أجرؤ أن أبوحَ بهِ للهواء.

الكتابةُ ليست ترفاً
إنها صلاةُ من احترقوا
ونجاةُ الذينَ لا مأوى لهم
إلا بين السطور.

أكتبُ عن بيوتٍ فقدتْ أصواتَها
عن نوافذَ ما زالتْ
تطلُّ على الغياب
عن أمهاتٍ ينتظرنَ
أبناءً علهم يعودونَ
من زمنٍ ضاعَ في الطريق.

أكتبُ عن طفولةٍ
اختبأتْ في خوفها
وعن ضحكةٍ خنِقتْ

تحتَ جنازيرِ المدافع
عن وطنٍ
ذابتْ ألوانهُ في المدى
وبقي عطرهُ في القلبِ
كزهرةٍ يابسةٍ
بينَ صفحاتِ كتابٍ قديم.

ليس لي من سلاحٍ
إلا الكلمة
ولا من أرضٍ
إلا الذاكرة.

كلُّ نصٍّ أكتبهُ
هو خطوةٌ نحو نفسي
وكل كلمةٍ
نافذةٌ تطلُّ على بيتٍ
لم يَعُد في الخرائط
لكنه ما زالَ في القلب.

الألمُ يُربّينا على الصبر
والحنينُ يعلمنا البقاء
وبينهما
يتكونُ الإنسانُ
من رمادٍ ونور
من بكاءٍ وجمال
من موتٍ صغيرٍ
وحياةٍ تواصلُ المشيَ على الجمر.

أكتبُ لأنّ الكتابةَ
هي آخرُ ما يبقيني واقفاً
ولأنّ النسيانَ —
حينَ يأتي —
يجيءُ مثلَ موتٍ
بلا نعشٍ... ولا وداع.

على سفحٍ لا يعرف الانحناء

على سفحٍ لا يعرفُ الانحناء
أعلّقُ اسمي
كجمرٍ لا تطفئهُ الرياح.
وأقولُ للريحِ العابرة:
ترفقي قليلاً
فهنا حكايةُ فتىً
كان ينسجُ من دمه
رايةً للأرض.

لم يقل يوماً:
«أعودُ غداً»،
كان يذهبُ
كما يذهبُ الغيثُ للأغصان
وكما تصعدُ التكبيرةُ
من صدرِ أمٍّ
تشدُّ على جرحِها
وتقول:
«سيمرُّ هذا الليل».

كان يمشي
والسهولُ تعلقُ على كتفيه
قلائدَ الضوء
وكانتِ الصقورُ
إذا مرَّ
تخفض أجنحتها احتراماً
لخطوته.

يا جبال...

من يستطيع أن يرى ما ترون؟
هنا
ولِدت الأغاني من فمِ التراب
وتعلّم الحجر
كيف يبكي..
وتعلّم القمح
كيف ينهض
من بينِ الحراب.

هنا
رعشةُ وطنٍ
يفتحُ عينيه كلَّ صباح
على نعشٍ جديد
ثم ينهض
كأنَّ القيامة
لا تقامُ إلا هنا.

أمي...
لا ترفعي ثوبكِ عن الدموع
فالبكاءُ
ماءُ الروح.
لكن قولي للنساء:
إنّ أبناءكنَّ
لم يذهبوا إلى الموت
بل ذهبوا
ليفتحوا لليل
باباً واحداً
من نور.

وقولي للصغار:
إذا حسدكم أحدٌ

على ضحكتِكم
فاعلموا أنّ آباءكم
أودعوا في قلوبِكم
نصفَ سماواتهم.

يا رفاقي...
إذا سقطتُ
فلا تقولوا: «مضى»
بل قولوا: «فتحَ للغيم ممرّاً».
وإذا وضعتم الترابَ عليّ
ضعوه برفق
فالترابُ
أولُ بيتٍ سكنتهُ
وأجملُ بيتٍ
أعودُ إليه.

ولا تجعلوا اسمي
على حجرٍ صامت
بل علقوه
على أعناقِ العابرين
كي يعرفوا
أنَّ الطريق
لم تعبدْ للحياة
بل صنعت
لأن نحملها.

ومن دمي
لا تصنعوا تمثالاً
بل اصنعوا
سُلّماً للغيوم.
فأنا لم أُخلق

لأقف في ساحةٍ
يتأملها السائحون
بل خلقتُ
لأكون صعوداً دائماً
نحو نورٍ
أبعدَ من العين.

واسقوا أرضي
من نبضي.
فالأرضُ
إذا عرفتْ صاحبها
أنبتتْ
قمحاً يشبهُ وجهه
وخبزاً يشبهُ قلبه
وماءً
يشبهُ صوته.

واكتبوا في خاتمةِ الحكاية:
هنا
نام فتىً
لم يعرف الانكسار
وعاش بسيطاً
كالقمح
وشامخاً
كالغصنِ إذا هبّتِ الريح.

هنا
إنسانٌ
لم يرفع صوته على أحد
لكنه حين صمت
ارتجّت الجبال.

بين موتين... أبحث عنكِ

يا امرأةً
تُضيِّقُ الدنيا حين تقتربين
وتُوَسِّعُ جُرحَ القلب حين تغيبين
ماذا تركتِ لليالي كي تفعله بي
بعد أن انتشلتِ نهاري من صدري
ووضعتِه في حقيبةِ الغياب؟

يا أنتِ...
يا مَن إذا نطقتُ اسمها
ارتجفت الأزمنةُ حولي
وإذا صمتُّ
تساقطَ العمرُ مثل غبارٍ
من نافذةٍ مكسورة.

علميني...
كيف يَحْتَمِلُ عاشقٌ
أن يصلبَ بين موتين:
موتٍ يجيءُ إذا اقتربتِ
وموتٍ آخر يسيلُ
حين تبتعدين...
فكلاهما يشبهك
وكلاهما يذبحني باسمك
وكلاهما يفتح باباً
لا يؤدي إلا إلى عينيكِ.

يا أنثى
خُلِقَ الليلُ من جراءِ حزنها
وتعلّم القمرُ طقوسَ البكاء

حين اكتشف
أن ضوءه لا يصل إلى قلبِك.

ماذا أفعل بليلٍ
يضع رأسه على كتفي
ويقول لي:
عُدْ إليها
فأنا أيضاً أتألمُ من غيابها...

أيُّ ليلٍ هذا
الذي صار أكثرَ إنسانيةً من البشر؟
أيُّ ليلٍ يحمل همّي
ويخاف عليكِ من وجع المسافات؟

أشهدُ...
أنني حين أحببتكِ
تكاثرَ الوردُ في أصابعي
وتفتحت الطرقاتُ لخطواتي
حتى صرتِ أنتِ الطريق
وصرتُ أنا مسافراً
لا يتقن سوى الرجوع إليك
ولا يتقن سوى الضياع فيك.

أيتها اللا منسيّة
في ذاكرةِ الروح
في أرشيفِ الحنين
في أدراجِ الوقت
في طياتِ يومٍ
لم يولد بعد...
أنتِ فصلٌ
لم يعرفه التقويم

وقصيدةٌ
لم يتجرأ شاعرٌ على كتابتها
خوفاً من أن يصاب
بجنونِ العشق الأبدي.

دليني...
أيُّ مكانٍ
يعيدني إليكِ؟
هل أعود عبر نافذةِ الهواء
حين يشبه عطركِ؟
أم أعود عبر الطريق
الذي تركتِ عليه
خطوةً تشبه أمنية؟
أم أعود عبر ظلّكِ
الواقفِ على حافةِ الغياب
يناديني كلما اعتقدتُ
أنني نجوت؟

دليني...
لو مرةً واحدة
كيف يشفى القلبُ
من امرأةٍ
تمشي في دمي
كالقدر؟

أنا الآن
بين نارين:
نارٍ تسكنُ صدركِ
إن عدتُ إليك
ونارٍ تسكنُ صدري
إن لم أعد...

فأيُّهما أخفُّ صرخة؟
وأيُّهما أرحمُ بالعاشق
من الأخرى؟

يا امرأةً
خلقتِ من الموتِ حياة
ومن الحياةِ موتاً آخر
وأنا بينهما واقفٌ
مثل شاعرٍ
يضيع بين بحرٍ وبحر
ويكتبكِ
كي ينجو...
ثم يهلكُ
حين يكتملُ البيت.

إن سألوكِ عنّي
فقولي:
كان عاشقاً
لا يعرفُ سوى وجهي
ليدلَّه على نفسه
وكان يهربُ إليّ
حتى حين يهربُ منّي
وكان قلبه بيتاً من لهب
يسألني البقاء
ويسألني الرحيل
في اللحظة نفسها.

وإن سألتِ الليلَ عنّي
فسيقول:
هو ذاك الذي يشاركني وحدتي
ويسقي ظلامي بأسئلته

ذاك الذي يكتبكِ
كأنَّ حبره الآخِر
هو آخرُ ما أبقاه القدرُ حياً.

فامنحيني
قبل أن ينطفئ الكلام
مخرجاً واحداً
من هذا التيهِ...
أو أرسلي قليلاً من صوتكِ
كي أعرف
أن الموتَ الذي اخترتُه
ليس موتاً..
بل طريقكِ.

نحن الذين لم يسلموا

كم يوماً ..
نحتاجُ
كي نسلمَ رجالنا للطغاة؟
كم قرناً
يلزمُ
كي نوقعَ أسماءنا
على صكِّ العار؟

نحنُ ..
لم نخلقْ
لنكونَ فائضَ موتٍ
في دفاترِ القتلة ..
ولا لنعلقَ قلوبنا
على مشانقِ الخوف.

نحنُ ..
أبناءُ هذا التراب
حين كان الترابُ فكرة
وحين كانت الحجارةُ
تكتبُ تاريخها
بكفِّ طفل.

نسألُ:
كم يوماً نحتاجُ
كي نتعلمَ الهزيمة؟
فيجيبنا الدمُ:
الهزيمةُ لغةُ
من لا ذاكرةَ له.

نحنُ لم نستسلم.
نحنُ
حين حاصرونا
صرنا أوسعَ من الحصار
وحين ضيقوا السماء
علقناها في صدورنا
زرقاءَ
كأغنيةٍ أولى.

قالوا:
سلموا الرجالَ
فالنجاةُ في الطاعة.
قلنا:
النجاةُ أن نكونَ جديرين بالموت
حين يأتي ..
وجديرين بالحياة
إن تأخرت.

نحنُ لا نحبُّ الحرب
لكننا لا نُحبُّ الذلّ.
ولا نعشقُ البنادق
لكننا
نرفضُ أن نقتلَ
بالصمت.

سيقولون:
حاربوا الجيلَ القادم
بفوهةِ البركان
وبالمدافع.
فنقول:
حاربونا إن استطعتم

بكل ما تملكون ..
فنحنُ
نورِّثُ أبناءنا
اسماً لا ينحني ..
وصوتاً لا يكسر ..
وذاكرةً
لا تقايِضُ الحريةَ
بالأمان.

نحنُ الجيلُ
الذي يخرجُ من الرماد
لا ناجياً، بل معنى.
نحنُ ..
الذين إذا خسروا الأرض
حملوها في أسمائهم
وإذا خسروا البيوت
سكنوا القصيدة.

لسنا أنبياء ..
ولا قدّيسين ..
لكننا نعرفُ
أن الطغاةَ
يكرهونَ المرآة
ولهذا نقفُ عراةً أمامهم
إلا من الحقيقة.

إما أن ننتصر
— لا على أحد —
بل على الخوف
أو نموت
ونتركُ للزمن

وصيةً واحدة:

أن الإنسان
أكبرُ من سجّانه ..
وأن الوطن
ليس خريطةً ..
بل كرامة.

سنمضي
ولا نمضي.
نموتُ
ولا نموت.
ففي كلِّ صدرٍ
بركانُ معنى
وفي كلِّ قلبٍ
مدفعُ حياة
وفي كلِّ شهيد
دليلُ إدانةٍ
للعالم.

نحنُ الذين لم يُسلّموا ..
ولن يُسلّموا
لأن الاستسلام
ليس خياراً
حين تكونُ الحرية
اسمك الأول.

الفجرُ المقاوم

نحنُ الذين أحبّوا الحياة
حين كانت الحياةُ ضيقةً
كقميصٍ مثقوبٍ بالرصاص
وعشقوا الحرية
وهي تمشي حافيةً
فوق زجاج المنافي.

لم نكن هواةَ موتٍ
ولا عشّاقَ بنادق
كنا نزرع القمح
في دفاتر المدارس
ونحلم ببيتٍ
له نافذةٌ تطلّ على الغد
لا على المتاريس.

لكنّ القدرَ
— ذلك الأحمق المتغطرس —
رمى في طريقنا
خرائطَ من نار
وقال:
امضوا...
فإما أن تكونوا..
أو لا تكونوا.

فاخترنا أن نكون.

اخترنا أن نوقع
ميثاق الصمود
بدمٍ لا يعرف الحبر

وأن نحمل أسماءنا
كراياتٍ لا تنكسر
وأن نقف
ولو بظلنا الأخير
في وجه العاصفة.

نحنُ شعبٌ
كلما ضاق به الليل
وسعه بالأغاني
وكلما انكسر الحجر
حوله إلى درجٍ
يصعد نحو الشمس.

نقاتل...
لا لأن القتالَ شهوة
بل لأن الحرية
لا تسلَّم مفاتيحها
إلا لمن طرق بابها
بقبضةٍ مجروحة.

نمضي...
وخطانا مثقلةٌ
بأسماء الغائبين
لكننا لا نلتفت
فالطريقُ
الذي تعلّم الحزن
صار يعرفنا.

نحنُ أبناءُ الأمل
العنيد
نخبئه في صدورنا

كطفلٍ نجا من المجزرة
ونحرسه
من اليأس
ومن النصائح الباردة.

نؤمن أنّ الغد
ليس هدية
بل معركةٌ مؤجلة
وأنّ الوطن
ليس حدوداً على خريطة
بل نبضٌ
يرفض التوقف
حتى وهو ينزف.

وإن سقطنا
سننهض
باسمٍ آخر
وبوجهٍ آخر
لكن بالحلمِ نفسه.

فنحنُ لم نخلق
لنموت بصمت
بل لنحيا...
ونقاتل...
ونمضي...

ومع كل جرحٍ جديد
نكتب وصيتنا القديمة:
سنحب الحياة
حين نستطيع إليها سبيلاً
وسنصنع السبيل
إن لم يكن موجوداً.

حين ينحني الوطن

لا تبكي...
فالبكاءُ نشيدُ المدنِ المهزومة
وأنا الوطنُ حين ينحني
كي لا يرى العالمُ كسرتَه.

لا تبكي...
فدمعتكِ بندقيةٌ مكسورة
تُسلّمُ نفسها للملح
وأنا لا أريد لكِ
أن تتعلمي الهزيمة
من ملامحي.

دمعتكِ ليست ماءً
بل خريطةُ منفى
رسِمتْ بيدِ الغياب
تتشقق فوق صدري
كأرضٍ خانها المطر
وكلما سقطتْ
انهارَ جدارٌ من روحي
وسقطتُ من اسمي
إلى رقمٍ في نشرةِ الألم.

أنا هذا الوطنُ
الذي كان شجرةً
فصار حطباً للحروب
وكان أغنيةً
فصار صدىً
في حنجرةِ الأرامل.

أنا البلادُ
حين تتلعثم في فمِ التاريخ
حين تسأل: من أنتِ؟
فتجيبُ بالدم
لا بالحدود.

لا تبكي...
فالبكاءُ اعترافٌ متأخر
ونحن لم نهزم بعد
نحن فقط
تعبنا من الوقوف
على قدمٍ واحدة
في طابورِ الخسارات.

أتعلمين؟
كان لنا بيتٌ
يطل على الصباح
وكانت لنا نافذةٌ
تغسل الشمسَ كلَّ صباح
وكان لنا اسمٌ
نكتبه على دفاتر الطفولة
دون خوف.

الآن...
نكتب أسماءنا
بأصابع مرتجفة
ونخبئها في الجيوب
كي لا تصادرها الريح.

أنا الوطنُ
حين يصبح المنفى

أوسع من الحلم
وحين يصير الطريق
سؤالاً بلا إجابة
وحين نكتشف
أن الخرائط
لا تحب من يمشون حفاة.

لا تبكي...
دعينا نؤجل الدموع
إلى ما بعد النصر
أو إلى ما بعد الموت
فالدمع الآن
ترفٌ لا يليق
بمن يحمل بلاده
على ظهره.

قولي للريح
أن تتمهل
فهنا قلبٌ
لم ينتهِ من الخفقان
وقولي للغائبين
إننا ما زلنا هنا
نزرع أسماءنا
في شقوق الجدار
وننتظر.

أنا الوطنُ
حين يسرق منه الغد
وحين ينهض رغم ذلك
ويمشي
متكئاً
على قصيدة.

ما تبقى لنا من الجهات

لا تسألِ الريح
لماذا غيّرت عنوانها
ولا تحاكمِ البحر
لأنَّ موجهُ
تعلَّمَ الهرب.

اسألوا البيتَ
كيف غدا ضيّقاً على أهله
كيف تحولت الجدران
من ذاكرةٍ دافئة
إلى أصابع
تخنقُ الصور.

نحنُ لا نغادر لأننا خِفة
ولا نرحل لأن الطرقاتِ
أجملُ هناك
نرحل
حين يصبح البقاء
تمريناً يومياً
على الاختناق.

نرحل
حين تُشيخنا الساعات
قبل أوانها
وحين يصير الصباح
مجردَ
تكرارٍ باهتٍ
لليلٍ أطول.

كان لنا هنا
مقعدٌ في الشمس
واسمٌ
لا يحتاج إلى تعريف
وكانت لنا أمٌّ
تخبئ البلادَ في رغيف
وتعلق الغد
على حبل الغسيل.

لكنّ البلاد
حين تخاف أبناءها
تدفعهم خارج الحلم
وتقول لهم:
عودوا
حين تصبحون
أقلَّ حياة.

نحنُ أبناءُ الصدفةِ الثقيلة
نولدُ
وفي أعناقنا
مفاتيحُ
لا تفتحُ شيئاً
ونكبر
لنكتشف
أنّ الأبواب
لم تكن لنا
أصلاً.

لا تسألِ الطيور
لماذا حلقت بعيداً
فالسماءُ نفسها

ضيّقت جناحيها
والأرض
تعلمت
كيف تطردُ ظلَّها.

نحنُ لا نبحث عن وطنٍ بديل
نبحث عن وطن
لا يطلب منا
أن نعتذر
لأننا وجدنا.

نبحث عن مكان
لا يُفتّش قلوبنا
عند المعابر
ولا يقيس انتماءنا
بمقدار الصمت.

في الرحيل
نحملُ
ما خفَّ وزنه
وثقُل معناه:
صوتَ أمٍّ
يناديا
من نافذةٍ بعيدة
ضحكةً
نسينا سببها
ولم ننسَ صداها
وشارعاً
يعرف
أسماءَ خطواتنا.

نمشي
ونترك خلفنا
نصفَ الروح
فالروح
لا تسافر كاملة
دائماً
يبقى جزءٌ منها
يحرسُ الخراب.

قالوا:
الصبرُ وطن
لكنهم نسوا
أنّ الصبرَ
بلا أفق
سجنٌ
مؤدّب.

وقالوا:
تأقلموا
ولم يقولوا
كيف يتأقلم القلب
حين يطلبُ منه
أن يتخلى
عن نبضه.

لسنا خائنين للتراب
الترابُ
هو الذي
تعبَ من حمل أقدامنا
فدلّنا

على جهةٍ أخرى
كي لا نموت
واقفين.

نحنُ لا نغادر
بل نؤجّل العودة
نضع الوطن
بين قوسين من وجع
ونمضي
على أمل
أن تشتاق البلاد
لأسمائنا
كما نشتاقُ
لها.

وإن سألتم يوماً
عن معنى الرحيل
فقولوا:
هو أن تحبّ المكان
إلى درجة
لا تستطيع
العيش فيه.

ماتَ شهيداً...

ماتَ شهيداً...
قلبي الذي قاومَ احتلالَ ماضيك
لا لأن الماضي عدوٌّ بطبيعته
بل لأنه جاء
مدججاً بصورك ..
بأسمائك القديمة ..
بخطاكِ التي عبرتْ شراييني
وتركتْ على الجدران
خرائط ملغومة.

ماتَ شهيداً ..
وهو يرفعُ رايةَ النسيان
نصفَ مرفوعة
كأنه كان يعرف
أنّ الذاكرة لا تهزم
بل تُرهَق
وأنّ القلب
حين يقاتل وحده
يصيرُ وطناً صغيراً
محاصراً
من الجهات كلها.

كنتُ أقول له:
اصمد
فالصبرُ شجرةٌ تنمو في المنفى
وكان يبتسم
ابتسامةَ من يعرف
أنّ الشجر أيضاً

حين يشتدُّ عوده
يقطع.

ماتَ شهيداً
لأنه آمن
أنّ الحبَّ قضيةٌ عادلة
وأنّ الخسارة
لا تعني الهزيمة
وأنّ من يموتُ واقفاً
يتركُ ظلَّه حراً
ليكمل الطريق
بدلاً عنه.

يا أنتِ ..
يا من كنتِ اسماً
ثم صرتِ زمناً
ثم تحولتِ إلى جدارٍ
علقتُ عليه
صوري القديمة
كي لا أسقط
من نفسي.

يا أنتِ ..
لم أعد أبحث عنكِ
لكن الطرقات
ما زالت تتهجى ملامحك
والليل
ما زال يضع رأسه على كتفي
ويسألني
بصوت المدن المهدمة:

هل انتهت الحرب؟

قلبي ..
ذلك الجندي
الذي لم يتعلم
كيف يعود من المعركة
كان يعرف
أنّ الاحتلال
لا يكون دائماً
دبابةً
ولا علماً غريباً
أحياناً
يكون حنيناً
يجلس بثقةٍ على الطاولة
يضع قدميه فوق الوقت
ويقول لك:
أنا هنا...
ولن أغادر.

ومن كوباني
مدينتي الجريحة
تعلم قلبي
كيف تحاصَر المدينة
ولا تستسلم
كيف يقصف الحجر
ويبقى الاسم
كيف يمشي الأطفال
فوق الركام
كأنهم يمشون
فوق مستقبلٍ مؤجَّل.

في كوباني
كان قلبي
بيتاً بلا سقف
وروحاً تواجه السماء
عاريةً
إلا من كرامتها
كان يعرف
أنّ الشهادة
ليست موتاً
بل إصرارٌ أخير
على الحياة.

ماتَ شهيداً ..
حين قرّر
أن يوقع وثيقةَ الحرية بدمه
وحين قال للماضي:
لن تكون مستقبلي
وحين أدرك
أنّ بعض الانتصارات
لا تروى في نشرات الأخبار
بل تدفن في الصدر
وتسمى:
كرامة.

الآن ..
أحمل قلباً جديداً
أخفَّ وزناً
أقلَّ بطولة
لكنه يعرف
أنّ الحياة

لا تعاش كلها
في الخنادق
وأنّ الشهداء
لا يموتون عبثاً
بل ليفتحوا لنا
طريقاً
نمرّ فيه
أحياء.

سلامٌ على قلبي
يوم قاوم
ويوم استشهد
ويوم نهضتُ من رماده
إنساناً
أقلَّ حنيناً
وأكثرَ حرية...
وأقربَ إلى كوباني.

حين يتذكر الجرحُ اسمه

لا يؤلمُ الجرحُ
إلا حين يتذكرُ الجسدُ
أنه كان يوماً
سماءً بلا حدود.

فالسكينُ
لا تعرفُ أين تُوجِع
وما يُوجِعُ حقاً
أن يتعرفَ الجسدُ
على اسمه القديم
في المرآة.

نحنُ لا نتألمُ لأننا نُصاب
بل لأننا نعرفُ
كيف كنا
قبل الإصابة.

نضحكُ...
كي لا يسمعَ الماضي
وقعَ خطاهُ
في صدورنا.

نضحكُ
لأن الضحكَ
آخرُ ما تبقى لنا
من لغةٍ
لا تخون.

وراء كلِّ وجهٍ ضاحكٍ

مقبرةٌ صغيرة
فيها أسماءٌ
لم نعد ننطقها
وصورٌ
نقلبها على عجلٍ
كي لا تتعرفَ علينا.

الضحكةُ
ليست فرحاً
إنها
هدنةٌ قصيرة
بين قلبين:
قلبٍ يريدُ أن يبكي
وقلبٍ تعلمَ
أن يصمد.

نحنُ أبناءُ الألمِ المؤجَّل
نصلُ دائماً
بعد أن تنتهي الحكاية
فنرثُ
الخسارة
ونختلفُ
على تفسيرها.

علمونا
أن نكون أقوياء
لكنهم نسوا
أن يقولوا لنا
كيف ننجو
من هذه القوة.

الشجرةُ المثمرة
لا تشبهُ نفسها
حين ترمى بالحجارة.

ترتجفُ...
لكنها لا تنحني.

كلُّ حجرٍ
سؤالٌ ثقيل
وكلُّ ثمرةٍ
جوابٌ صامت.

قالوا:
لماذا لا تدافعين عن نفسكِ؟
قالت الشجرة:
أنا أدافعُ
بالجذور.

فمن يملكُ فراغاً في قلبه
يرمي حجراً
ومن يملكُ ظلاً
يعرفُ
أنّ الظلَّ
لا يُقذَف.

الجرحُ
ليس حفرةً في الجسد
الجرحُ
بلادٌ ضيقة
نسكنها مؤقتاً
ثم تطلبُ منا
أن نكتبَ دستورها

بدمنا.

كلُّ جرحٍ
وطنٌ صغير
وكلُّ نزيفٍ
خريطة.

نكتبُ
لأن اللغةَ
هي آخرُ ما تبقى
من بيتٍ
لم يُهدَم.

نكتبُ
كي لا نتحولَ
إلى أرقامٍ
في نشرة المساء
ولا إلى ذكرى
في فمِ أمٍّ
تحسنُ الانتظار.

لا تؤلمُ الضريبةُ
يؤلمُ أن نعرفَ
أننا كنا نستحقُّ
حياةً أقلّ قسوة.

يؤلمُ
أن يكون القلبُ
أوسعَ من العالم
وأن يكون العالمُ
أضيقَ

من نبضٍ واحد.

أيها الذاهبون
إلى ضحكاتكم
تمهلوا...
فالضحكُ
قد يكون
دمعةً
غيّرتْ طريقها.

وأيها الواقفون
تحت الشجر
لا تخافوا من الحجارة
فالسماءُ
لا تختبَر
إلا حين ترمى.

سنضحكُ...
نعم.

لكننا سنعرفُ
أنّ الضحكَ
ذاكرةٌ متنكرة
وأنّ الجرحَ
هو الاسمُ الحقيقي
للإنسان
حين يحبّ الحياة
أكثر مما تحتمل.

الفجرُ لنا

الفجرُ لنا
لا لأنّ الشمسَ تحفظ أسماءنا
بل لأننا علمناها
كيف تخرج من بين الركام
من غير أن تعتذر للظلّ.

الفجرُ لنا
نكتبه بأصابعَ كانت مقيّدة
فنحرّر الوقتَ من ساعاته
ونعلّق النهار
على كتفِ الأغنية.

نحنُ أبناءُ هذا التأخيرِ الجميل:
تأخيرِ العدالة
تأخيرِ القمحِ عن المائدة
وتأخيرِ الوطن
عن اسمه الحقيقي.

نحنُ الذين مشَوا إلى الحلم حفاةً
كي لا يوقظوا البنادق
وحملوا البلادَ في جيوبهم
كصورةِ أمٍّ قديمة
تخشى أن تضيع.

الفجرُ لنا
لأنّ الليلَ تعب من مطاردتنا
ولأنّ القمرَ تعلّم من وجوهنا
كيف يكون ناقصاً...
وكيف يكتمل بالأمل

لا بالاكتمال.

نحنُ لا نطلب المستحيل
نطلب فقط
ظلّاً لا يُعتقل
وصوتاً لا يُترجَم في المحاكم
وأسماءً لا تكتَب بالرصاص.

الفجرُ لنا
حين نُسمّي الخبزَ خبزاً
لا شعاراً
وحين نُسمّي الشهيدَ شهيداً
لا رقماً
في نشرةِ المساء.

لنا الفجرُ
حين نفهم أنّ الوطن
ليس حقيبةَ سفر
بل وجعٌ مشترك
نتقاسمه
كي لا يموت أحدُنا وحيداً.

نمشي
ولا نعرف إلى أين ..
لكنّ الأرضَ تعرف خطانا
وتفتح لنا صدرها
كلّما سقط منّا اسم.

الفجرُ لنا
لأننا لم نرث الهزيمة
بل ورثنا
قدرةَ الوقوف بعد كلّ سقوط

وقدرةَ الغناء
والجرحُ مفتوح.

نحنُ أبناءُ السؤال
نسأل:
كيف تصير الحريةُ خبزاً يومياً؟
وكيف يصبح الحلمُ قانوناً
لا يُلغى بمرسوم؟

الفجرُ لنا
لأننا حين بكينا
لم نطلب الشفقة
وحين صرخنا
لم نطلب الانتقام
بل طلبنا فقط
أن نُعامَل كبشر
لهم صباح.

سنصل ..
لا لأنّ الطريقَ قصيرة
بل لأنّ الذاكرةَ طويلة
ولأننا نحفظ أسماءَ القرى
كما نحفظ أسماءَ أحبابنا.

الفجرُ لنا
وسنقوله بهدوء
كي لا يخاف الأطفالُ من الضوء
وكي لا ترتبك الزنابق
حين نمرّ.

الفجرُ لنا...
لأننا هنا
ولأننا باقون ..
ولأنّ من يزرع القلب
لا يخون المواسم.

افترقنا...

حين افترقنا ..
لم نغلق باباً
بل أغلقَ العالمُ صوته
وصار الصدى
الشيءَ الوحيد
الذي يربّتُ
على كتفِ المكان.

كان الكتابُ وحيداً
لا يقرؤه أحد
مركوناً على مقعدٍ يتيم
كشيخٍ يعرفُ الحقيقة
ولا يملكُ شاهداً
صفحاته منحنية
كظهرِ الوقت
وحروفه
تمشي
على عكازِ الصمت.

تركناه هناك
بلا وداعٍ يليقُ به
ولا يدٍ تعيده إلى رفِّه
كأننا قلنا للمعرفة:
سامحينا
فالقلوبُ
حين تنكسر
لا تقرأ.

تركنا الكتبَ للغبار
وتركنا الغبار
يحفظُ أسماءنا
تركنا الأمكنة
بلا شهود ..
فصارت الطاولات
أكثرَ وفاءً
من البشر.

تركناها نسائمَ
حيث تشاء
ريحاً لا تعرفُ الاتجاه
تدخلُ صدورَ الغرباء
وتخرجُ منهم
بلا أثر
كأنها تعلّمت منّا
فنَّ المرور
دون إقامة.

تركناها للأقدار
بلا وصيّةٍ للحنين
ولا خارطةَ للرجوع
حنيناً يشبهنا
حين كنّا نؤمن
أنّ القلب
أقوى
من المصادفة.

وتركنا الليل
وحيداً على الفراق
ليلاً بلا قمرٍ كامل

قمراً مكسوراً
كوعدٍ قديم
ليلاً
يتعلّمُ البكاء
من النوافذِ المغلقة.

أما الحبّ...
فتركناه
حين أحببناه أكثر
تركناه على عتبةِ الحلم
يرتجف ..
كطفلٍ
لم يفهم
لماذا
لم نعد
حبٌّ بلا لغة
يدافعُ عن نفسه
بالدمع.

افترقنا ..
وكلُّ واحدٍ منّا
حمل وطنه الصغير
في صدره
وطناً من ذكرى
وصورة
ورسالةٍ لم تُرسَل
نمشي به
دون علمٍ
أو نشيد.

أنا الآن

أمرُّ بكِ
كما تمرُّ الفكرة
في رأسِ شاعرٍ متعب
ألمحكِ
ولا أملكِ
وأعرفكِ
ولا أصلُ إليكِ
كأنكِ
احتمالٌ جميل
لم يكتمل.

أقول:
ربما لم نخسرِ الحبّ
ربما
كانت الخسارةُ فينا
حين صدّقنا
أنّ الفراق
نهاية
ولم نعرف
أنّه
شكلٌ آخر
من أشكالِ البقاء.

افترقنا...
لكنّ المقعدَ اليتيم
ما زال ينتظر
والكتاب
ما زال مفتوحاً
على صفحةٍ بيضاء
والليل

ما زال ينادينا
بأسمائنا الأولى.

افترقنا ..
نعم ..
لكنّ الحبّ
تعلّم
كيف يعيش
داخل القصيدة
كي لا يموت.

جهةُ القلب

وإنِ ابتعدتُ يوماً ..
فلا تفتِّش عنّي في خرائطِ الغياب
فالخرائطُ تخون الجهات
حين يتعب القلب من الاتجاه
وأنا لم أكن يوماً إلا جهةَ قلبي.

إنِ ابتعدتُ ..
فابحث عنّي في ارتباك الضوء
حين يسقط على وجهك بغتةً
فيوقظ فيك اسماً
لم يولد بعد
في رعشةِ الأصابع
قبل أن تخطَّ اسمك على زجاج الشتاء
في الصمتِ الذي يسبق اعترافاً كبيراً
ويخشى أن يقال.

ستجدني عالقاً بين الكلمات
لا كحرفٍ ضائعٍ في هوامش الكلام
بل كجذرٍ سريٍّ
يسقي المعنى من عتمته
ويعلمه كيف يزهر.
أنا المسافةُ بين نَفَسٍ ونَفَس ..
بين دقةِ قلبٍ وأخرى
حيث يجلس الخوفُ قليلاً
إلى جوار الرجاء
كغريبين تصالحا على الانتظار.

كنتُ أظنّ الوطنَ حقيبةً

فحملته في أسفاري
فاكتشفتُ أنه جرحٌ مضيءٌ
يحملني أنا
ويمشي بي حيث يشاء.
وكنتُ أظنّ الحبَّ نافذةً
ففتحتُها للريح
فإذا بي أنا النافذة
وإذا بالريحِ
تعبرني
وتأخذني معها إلى اتساعها.

يا أنتِ ..
يا شجرةً تشاركني ظلَّها
ولا تسألني عن اسمي
إذا طال غيابي
فلا تزرعي فوق صوتي نسياناً
ازرعي قمحاً ..
فالقمحُ يعرف كيف يقوم
من موتٍ قصير
وكيف يحفظ سرَّ الضوء في سنابله.
أنا لا أموت
أنا أبدّل قميصَ أيامي
كما تبدّل القصيدةُ لغتها
حين تضيقُ بها الحقيقةُ
فتفتّش عن أفقٍ أرحب.

سأكون في المقهى القديم
كصوتِ ملعقةٍ يوقظ صمت الفنجان
في مقعدٍ خالٍ
يحتفظ بحرارة الغياب

في غيمةٍ تمشي بلا عنوان
لكنها تعرف طريق بيتك
أكثر مما تعرفه الطرق.

أنا الذي تعلّم من البحر
أن كلَّ موجةٍ
وداعٌ مؤقتٌ للبر
ومن القمر
أن النقصانَ ليس عيباً
بل وعداً بالاكتمال
ومن أمي
أن الدعاء
جسرٌ خفيٌّ
تعبره الأرواحُ حين تضيق الأرض.

وإن سألوك عنّي
فقل لهم:
كان يخبئ قلبه في قصيدة
ويخبّئ القصيدة في امرأة
ويخبّئ المرأة في حلمٍ
أوسع من البلاد وأضيق من دمعة.
كان إذا ضحك
تراجع الليل خطوةً
وإذا بكى
تقدم الضوء ليحمله.

لا أطلب خلوداً
يكفيني أن أكون فاصلةً مضيئةً
في جملة هذا الكون
أن أكون نسمةً عابرةً

تلمس جبينك
فتذكرك بأن الحياة
ليست كلها حرباً
وأن للورد أيضاً
حقه في الظهور.

وإن ابتعدتُ يوماً
فلا تحزن كما يحزن الباب
إذا طال انتظاره
افتح قلبك للريح
فلعلي أعود في هيئة أغنية
أو في يد طفلٍ
يرسم شمساً لا تخاف الغروب
أو في قبلةٍ
تعيد للعالم توازنه المختل.

أنا ابنُ الكلمات ..
إن خانتني
متُّ قليلاً
وإن صدّقتني
عشتُ أكثر مما ينبغي.
أمشي على حبل الضوء
بين هاويتين:
هاوية العالم
وهاوية نفسي
وأكتب كي أتوازن
كي لا أسقط في إحداهما.

وإن لم تجدني
فأغمض عينيك
واصغِ إلى قلبك جيداً

ستجدني هناك
رجفةً صغيرةً
تقاوم الشيخوخة
وصوتاً خافتاً يقول لك كلَّ مساء:
لا تخف...
فما دام في صدرك نبضٌ
فثمّة قصيدةٌ
تبحث عنك
كما تبحث أنت عنها.

أنا والليل... سيرة الظلّ والنجمة

أنا والليلُ
التقينا على صفحاتِ الحزن
كأنّ كتابَ العالمِ أُغلق فجأةً
وبقينا . أنا وهو .
نقرأ الهامشَ المنسيَّ من العمر.

قلتُ له:
يا صديقي الذي لا ينام
كيف وسِعتَ هذا القدرَ اليائس
في قبضةٍ من ظلام؟
وكيف خبّأتَ صرخةَ النهار
في جيبِ نجمةٍ ترتجف؟

ابتسم الليلُ
وكانت ابتسامته قمراً مكسوراً
يحاول أن يُرمّم خرائطَ الروح.
وقال:
لسنا تعساء كما نظن
نحن فقط نجيد الإصغاء
لخطواتِ الغياب.

أنا والليل
اقتسمنا الألم
كما يقتسم يتيمانِ رغيفَ ذاكرة؛
له نصفُ الحنين
ولي نصفُ السؤال.
هو يعرف أسماءَ الراحلين
وأعرف أنا أسبابَ الرحيل

فصرنا شريكين
في شركةِ الخسارات الكبرى.

جلستُ إلى جواره
على درجِ الريح
والمدنُ تمرُّ تحتنا
كقوافلَ من صمتٍ متعب.
سألته:
لِمَ كلُّ هذا البرد؟
قال:
حين تطفئ القلوبُ مواقدها
يصبح الكونُ أرملةَ نار.

أنا والليل
كنّا نعلّق أحزاننا
على مساميرِ الغيم
فنرى المطرَ يهطل
كاعترافٍ متأخر.
أضع رأسي على كتفه
فيغدو الظلُّ وسادةً
وتغدو النجمةُ أمّاً
ترضعني شيئاً من الطمأنينة.

يا ليلُ ..
أيها الأخُ الأكبرُ للدموع
أما تعلم أنّ قلبي
لم يعد بيتاً لأحد؟
أنّ الطرقاتِ عبرتني
كما تعبر الريحُ شرفةً مهجورة؟

قال:

كلنا بيوتٌ بلا عناوين
غير أنّ الله يمرّ أحياناً
ليشعل فينا شمعةَ المعنى.

أنا والليل
كتبنا سيرةَ التعب
بحبرٍ من نجومٍ مذبوحة
ورسمنا وجهَ الوطن
على صفحةِ الغياب.
كان الوطنُ جرحاً يتيماً
يبحث عن كتف
وكان قلبي
ذلك الكتفَ المؤقت.

اقتسمنا القدر
كما يقتسم عاشقان نافذةً
تطلّ على حربٍ بعيدة؛
هو يرقب سقوطَ القذائف
وأرقب أنا سقوطَ الأحلام.
وفي النهاية
لم يبقَ من الحرب
إلا غيمةٌ سوداء
تقيم بين ضلوعي.

يا ليلُ ..
علّمني كيف أكون نجمةً
لا تخشى اتساعَ السماء
وكيف أكون شجرةً
تمدّ جذورها في العتمة
كي لا تنكسر.

قال:
كن ظلّاً وفيّاً لقلبك؛
فالضوء عابر
أما الظلّ
فهو سيرةُ الأشياء حين تصدق.

أنا والليل
لم نكن خصمين
بل مرآتين
يتأمّل كلٌّ منّا
شروخَ الآخر.
يضع سواده على كتفي
فأزهر قليلاً
وأضع دمعي في عينيه
فيبرق برقاً حنوناً.

وفي آخر السهر
حين تعبت النجوم من العدّ
وسقط القمر في بئر الغيم
همس لي:
لا تخف من وحدتك؛
فالوحدة أحياناً
حديقةٌ لا يدخلها
إلا الصادقون.

نهضتُ من جواره
وقلبي أخفّ
كأني تركت نصفَ حزني
في جيب العتمة
وأخذت نصفَ الضوء

سراً صغيراً
أخبّئه في صدري.

أنا والليل...
لسنا حكايةَ يأس
بل تمرينٌ طويل
على احتمالِ المعنى.
كلما ضاقت الطرق
فتحنا نافذةً في الظلام
وكلما انكسرنا
زرعنا في الشقوق
نجمة.

هكذا افترقنا عند الفجر؛
هو يعود إلى عرشه الأزليّ ..
وأعود أنا إلى يومي
وفي قلبي
شيءٌ من سواده النبيل
وشيءٌ من صبره العميق
وكثيرٌ من يقين
بأنّ الحزن
ليس نهاية القصيدة
بل بدايتها.

الدار التي نسيت أسماءها

لا تسألِ النافذةَ عن وجوهٍ كانت تطلُّ منها
فالزجاجُ يحفظُ أنفاسهم كندبةٍ شفافة
ويرتعشُ كلما مرَّ طيفٌ يشبههم.

لا تطرقِ البابَ كثيراً...
فالخشبُ تعبَ من الأسئلة
ومساميره صدِئت من الانتظار
وصوته — حين يفتح —
يشبهُ تنهيدةَ شيخٍ
ضاع أبناؤه في الجهاتِ الأربع.

هنا...
كان المساءُ يضعُ قمرَه على الطاولة
ويجلسُ بينهم
وكانت الضحكاتُ
تتدلى من السقف
كعناقيدِ ضوءٍ
لا تخافُ العتمة.

الآن ..
تجلسُ الكراسي وحيدةً
تحدّقُ في الفراغ
كأنها نسيت
أسماءَ الذين حملوها
إلى دفءِ الحكاية.

لا تقل: أين ذهبوا؟
فالطرقُ لا تعترفُ بالراحلين

والريحُ — حين تبتلعُ الأثر —
لا تعيده.

تفرقوا...
كما تتفرقُ سنابلُ القمح
حين يعبرها حصانُ الحرب
كما يتناثرُ الرمادُ
من قلبِ موقدٍ
لم يجدْ من يشعله صباحاً.

يا طارقَ الحنين
خفّف يدكَ عن الباب
فإن للأخشابِ ذاكرةً
تصرخُ حين تلامسها الأصابع
وإنَّ للبيوتِ قلوباً
تنبضُ بالخطى
ثم تموتُ
حين تنقطع.

لا توقظِ الصورَ المعلقةَ على الجدار
فهي ما تزالُ تنظرُ
إلى الأمام
بانتظارِ عودةٍ
لن تأتي.

في الزاوية
قنديلٌ قديم
يحرسُ ظلالهم
وفي الممرّ
خطوةٌ يتيمة
لم تجدْ صاحبها.

كلُّ شيءٍ هنا
يعرفُ أنهم رحلوا
إلا الهواء...
ما يزالُ يبحثُ عن صدورٍ
ليستريحَ فيها.

لا ترجُ جواباً
فالصدى لا يعيدُ الوجوه
ولا يجمعُ الشتات.

ارحمِ الدار...
فهي امرأةٌ عجوز
فقدت أبناءها في ليلةٍ واحدة
وما تزالُ ترتبُ أسرتهم
كأنهم سيعودون عند الفجر.

ارحمِ الجدران
فقد تعبت من حملِ الأسرار
وارحمِ العتبة
التي قبّلت أقدامهم
حين غادروا
ولم تعرف
أن القبلةَ الأخيرة
لا تعود.

هنا ..
كان الحبُّ يعبرُ
عارياً من الخوف
وكان الخبزُ ساخناً
كقلبِ أمٍّ
لا تسألُ إلى أين يذهبُ أولادها.

الآن ..
الخبزُ حجر ..
والأمُّ ريح ..
والحبُّ حقيبةٌ منسيّة
في محطةٍ
لا يصلُ إليها قطار.

لا تسألِ الدارَ
عمّن كان يسكنها
فالدارُ تعرفُ أسماءهم
واحداً واحداً
لكنها تخجلُ أن تنطقها
كي لا ينكسرَ الليلُ
في حلقها.

وإذا مررتَ من هنا
فامشِ على مهل
فالأرضُ ما تزالُ تحفظُ ثقلَ أقدامهم
وتخافُ أن تفقده.

وإن بكيتَ
فابكِ بصمت...
فالمواجعُ، حين توقظها الأصوات
تنهضُ كجيشٍ من الذكريات
وتحتلُّ القلب.

هذه البيوتُ
ليست حجارةً فقط
بل صدورٌ مفتوحةٌ للغياب
وذاكرةُ مطرٍ
يتذكرُ السقف

ولا يجده.

فدعها تنام...
دعها تحلمُ بمن رحلوا
فلعلَّ في الحلم
وطناً صغيراً
لا يهجر
ولا يغلقُ بابه
في وجهِ العائدين من التعب.

مرثيتي الأخيرة

لماذا تركتِ أحزاني وحيداً
كشجرةٍ نسيتْ ظلَّها
في ظهيرةِ المنفى؟

لماذا تركتِ آلامي
على سريرِ الليل
تتقلبُ مثلَ جريحٍ
لا يعرفُ اسمَ قاتلتِه؟

ولماذا تركتِ ذكرياتي
على بابِ الرحيل
كحقيبةٍ
لم تنتبهْ إليها يدكِ الأخيرة؟

أنا لا أعاتبكِ...
لكنني أسألُ الغياب:
كيف استطعتِ أن تأخذي معكِ كلكِ
وتتركيني
نصفَ قلبٍ
ونصفَ حياة؟

كانَ لكِ في صدري
مكانٌ
أوسعُ من الجهات
وكانَ لصوتكِ
قدرةُ المطر
على إعادةِ ترتيبِ الفصول.

كنتُ أراكِ ..

فأصدّقُ أن العالمَ
ما يزالُ صالحاً للحب
وأنَّ الليل
ليسَ سوى استراحةٍ قصيرة
في طريقِ الضوء.

لكنَّكِ رحلتِ...
فصارَ الليلُ
وطناً دائماً
وصارَ الضوء
ذكرى بعيدة.

لماذا تركتِ النافذةَ مفتوحةً
والريحَ بلا معنى؟

لماذا تركتِ اسمكِ
يتردّدُ في قلبي
كصلاةٍ
ضاعَ طريقها إلى السماء؟

كنتُ أمشي إليكِ
كمن يمشي إلى خلاصه
وكانت خطايَ
تتعلمُ منكِ
كيف تصيرُ طريقاً.

واليوم ..
أمشي...
ولا أصل.

كأن الطريقَ
فقدَ إيمانهُ بالوصول

حين فقدكِ.

يا آخرَ المعنى
يا أولَ الفقد
يا لغةً
انكسرتْ
في فمِ الغياب

ماذا فعلتِ بي؟

لقد تركتِني
أتقاسمُ وحدتي مع الصدى
وأقنعُ قلبي
أن النبض
ليسَ دليلاً كافياً على الحياة.

في الليل ..
أبحثُ عنكِ
في الجهاتِ الأربع
فلا أجدُ سوى الفراغ
ينظرُ إليّ
بعينيكِ.

وفي الصباح
أفتحُ النافذة
فلا يدخلُ الضوء
بل يدخلُ غيابكِ
كاملاً...
كأنّهُ أنتِ.

لقد صارَ الغياب
امرأةً تشبهكِ

تجلسُ معي
تنامُ قرب قلبي
وتوقظني
على اسمكِ.

أقولُ له:
أعدني إليها.

فيقول:
لقد صارت أبعدَ
من النداء.

لماذا تركتِ صوتكِ
معلّقاً في أذني
كآخرِ وصيّة؟

ولماذا تركتِ يدي
ممدودةً في الهواء
كغصنٍ
نسيَتْهُ شجرتُه؟

كنتُ أؤمنُ
أن الأشياءَ لا تموت
ما دامت تحبّ
لكنني تعلّمتُ منكِ
أن الحبَّ نفسهُ
يمكن أن يصيرَ قبراً.

أيتها الراحلةُ
خفيفةً كنجمة
ثقيلةً كوطن

ماذا أفعلُ بكلِّ هذا الحنين؟

أين أضعُ قلباً
ما يزالُ يناديكِ
باسمكِ الأول؟

وأين أدفنُ
هذا الصوتَ
الذي يشبهكِ
ولا أنتِ؟

لقد تركتِني
وحيداً...

وحيداً
كآخرِ شجرةٍ
بعدَ الحريق

كآخرِ نجمةٍ
بعدَ انطفاءِ السماء

كآخرِ كلمةٍ
في قصيدةٍ
مات شاعرها
قبل أن ينهيها.

ومع ذلك...
ما زلتُ أحبكِ.

كأنكِ لم ترحلي
كأنكِ ما زلتِ
تسكنين
في المسافةِ بين نبضتين

كأنَّ الفقد

كانَ وهماً صغيراً
وكأنكِ
ستعودين يوماً

وتطرقين بابَ قلبي
برفق

وتقولين:

لم أتركَكَ...
كنتُ فقط
أختبرُ
كم يستطيعُ قلبكَ
أن يبقى وفيّاً لي
في غيابي.

حين تركتِ قلبي في العتمة

لماذا تركتِ قلبي
واقفاً عند عتبةِ صوتكِ
كطفلٍ أضاعَ يدَ أمّه
في زحامِ الرحيل؟

لماذا تركتِ أحزاني
تنامُ وحدها
في سريركِ البارد
وتأخذين معكِ دفءَ الاسم
والخطوة
والظلّ؟

كنتِ لي...
كأنكِ المعنى الأخيرُ للمعنى
وكأنَّ العالمَ
اختصرَ الجهاتِ الأربع
في عينيكِ.

وحين ابتسمتِ
كان المساءُ يخلعُ سواده
ويرتدي قميصاً من ضوء.

وحين لم تعودي
عاد المساءُ
يتيماً...
بلا قمر.

لماذا تركتِ الليلَ
مفتوحاً على صراخه

وتركتِني
أحرسُ الصمتَ
كجنديٍّ مهزوم؟

أيتها التي كانت
إذا مشتْ
تبِعتْها الفصول

وإذا ضحكتْ
ارتبكتِ النجوم

وإذا نظرتْ إليَّ
صدّقَ قلبي
أنه خلقَ
ليحبَّكِ أنتِ.

ماذا فعلتِ بهذا القلب؟

لقد صار بيتاً بلا سقف
تمطرُ فيه الذاكرة
ولا يجفّ.

وصار ساعةً
تدقُّ اسمكِ
كلَّ دقيقة
ولا تشيرُ إلى وقت.

لماذا تركتِ اسمكِ
معلقاً في دمي
كوشمٍ
لا يعرفُ النسيان؟

ولماذا تركتِ عطركِ

يسكنُ الهواء
كأنكِ
لم ترحلي؟

أيتها الغائبةُ حضوراً
الحاضرةُ غياباً

كيف استطعتِ أن تأخذي معكِ كلَّكِ
وتتركيني
نصفَ رجلٍ
ونصفَ صلاة؟

كنتُ، إذا ضاقَ العالم
اختبأتُ فيكِ
وإذا اتسعَ الحزن
اختصرتهُ في يدكِ.

والآن...
أين أختبئ؟

المدنُ لا تشبهكِ
والشوارعُ لا تحفظُ خطاكِ
والأرصفةُ باردةٌ
كقلبِ ليلٍ
فقدَ نجمته.

في الليل
أحاورُ صورتكِ
فلا تجيبُ
إلا بعينيها.

وفي الصباح
أفتحُ النافذة

فلا تدخلُ الشمس
بل يدخلُ غيابكِ
كريحٍ
تعرفُ طريقها إلى صدري.

لماذا تركتِ يدي
ممدودةً في الهواء
كغصنٍ
خانهُ الربيع؟

ولماذا تركتِ قلبي
يبحثُ عنكِ
في وجوهِ النساء
فلا يجدُ
إلا صورتكِ
تعتذرُ
ولا تعود؟

كنتِ آخرَ يقيني
وأولَ شكي
وكلَّ أسئلتي
التي لم أجرؤ
على طرحها.

واليوم ..
صرتِ
سؤالًا بلا جواب.

أيتها الراحلةُ
خفيفةً كنَفَسٍ على زجاج
ثقيلةً كوطنٍ
يسكنُ الروح،

ماذا أفعلُ بهذا الحنين؟

أين أضعُ قلباً
لم يتعلم
كيف يعيشُ بدونكِ؟

كيف أشرحُ للنبض
أنكِ لن تعودي؟

وكيف أشرحُ للغيمة
أن سماءها
لم تعد هنا؟

لقد تركتِني
وحيداً...

وحيداً
كآخرِ شجرةٍ
بعد الحريق

كآخرِ موجةٍ
بعد انكسار البحر

كآخرِ بيتٍ
في قصيدةٍ
لم يكتمل معناها.

ومع ذلك...
أحبكِ.

أحبكِ
كما يحبُّ المنفيُّ
مفتاحَ بيته القديم

وكما يحبُّ الأسيرُ
نافذةً
بحجم الحلم.

أحبكِ
حتى صار حبُّكِ
وجعي الجميل

وحتى صار غيابكِ
اسمي الثاني.

فإن عدتِ يوماً
لن أسألكِ
لماذا رحلتِ

سأفتحُ قلبي
كما كان

وأقول:

تأخرتِ قليلاً...
لكنني
كنتُ أنتظر.

لا أحد يعودُ كاملاً

لا أحدُ يعودُ كاملاً
حتى الذين عادوا
محمَّلينَ بأسمائهم
كأنّها حقائبُ نجتْ من الغرق.

يعودونَ
بنصفِ ظلٍّ
ونصفِ ذاكرةٍ
ونصفِ قلبٍ
يخفقُ كطائرٍ
نسيَ لماذا كانَ يطير.

لا أحدُ يعودُ كاملاً
فالطرقُ التي ابتلعتْ خطاه
لم تعدْ إليهِ قدميه
بل أعادتْ إليهِ
ارتجافةَ الأرضِ
حين كانتْ تخافُ عليه.

كلُّ طريقٍ
يأخذُ منكَ شيئاً:
صوتَ أمٍّ
كان يناديكَ باسمكَ الأول
وشرفةً
كانتْ تقاسمكَ الغروب
ويداً
لم تقلْ لك وداعاً
لكنها لم تنتظرْ عودتك.

لا أحدُ يعودُ كاملاً
حتى الذين لم يغادروا
فالبقاءُ أيضاً
رحيلٌ آخر
لكنّهُ يحدثُ
داخلَ القلب.

رأيتُ وجهي
يسقطُ عن مرآتي
كقناعٍ قديم
ورأيتُ اسمي
يناديني
ولا أعرفُ من يكون.

كنتُ أظنُّ
أنّ العودةَ بابٌ
لكنّها كانتْ
مرآةً.

وكنتُ أظنُّ
أنّ الوطنَ مكانٌ
لكنّهُ كانَ
جرحاً
يتذكرني
كلما نسيتُه.

لا أحدُ يعودُ كاملاً
فالزمنُ
ليس نهراً نعبره
بل نهرٌ
يعبرنا

يأخذُ من أعمارنا ما يشاء
ويتركُ لنا
صورةً باهتةً
لمن كنّا.

كنتُ أركضُ خلفَ طفولتي
لكنّها كانتْ أسرعَ مني
تلوّحُ لي
من جهةٍ
لا يصلها أحد.

لا أحدُ يعودُ كاملاً
حتى الحبُّ
يعودُ ناقصاً
بصوتٍ مكسور
وبقلبٍ
يخافُ أن يُصدّقَ نفسه.

نحملُ الذين أحببناهم
كأنّهم وطنٌ صغير
ثم نكتشفُ
أنّ الوطنَ
لم يكنْ سوى
غيمةٍ
مرّتْ بنا
وتركتْنا عطشى.

لا أحدُ يعودُ كاملاً
لكننا
نعودُ بما يكفي
لنقول:

كنا هنا
كنا نحلمُ
بسماءٍ
لا تسقطُ علينا
وبأرضٍ
لا تخافُ خطانا.

كنّا نحلمُ
أن نكونَ كما بدأنا:

خفيفينَ
كأوّلِ اسمٍ
وصادقينَ
كأوّلِ دمعة.

لا أحدُ يعودُ كاملاً
لكنّ شيئاً فينا
ينجو دائماً:

ذلك الضوءُ الصغير
الذي لا ينطفئ،
حتى حين
نصيرُ
كلنا
ليلًا.

كنتِ آخرَ ناجٍ منّي

كنتِ آخرَ ناجٍ منّي
حين انهارت المدنُ
وغابت وجوهُ الذين أحببتهم
وتركتني
أتسكعُ بين أطلال الذكريات.

كنتِ آخرَ ناجٍ منّي
كحلمٍ لم يكتمل
ككتابٍ سقطت صفحاته
في مجرى نهرٍ لا يرحم
كضوءٍ تاه بين أهداب الليل.

عيناكِ...
كانتا مرآةً لمستقبلي
لكنّي لم أجد فيهما نفسي
فكنتِ تعيدين إليّ
كل ما فقدته
بين صرخات الغياب.

كنتِ آخرَ ناجٍ منّي
حتى عندما سقطت الكلماتُ
واختبأت في زاوية الحزن
ظلّ صمتكِ يغمرني
كسماءٍ تمطر على روحي
ويروي عطشي للأمان.

كنتِ آخرَ ناجٍ منّي
وكل المدن التي رحلت
وكل الوجوه التي ذهبت

تلاشت أمامكِ
كأنّكِ وحدكِ
التي تملكين القدرة على البقاء.

عند الفجر
كنتِ تنامين على أطراف النور
وأستمع إلى قلبكِ
ينسج أشرعة الأيام القادمة
كأنكِ تعرفين أنّي سأهلك
لو لم أجدكِ هناك.

كنتِ آخرَ ناجٍ منّي
ففيكِ أعود إلى نفسي
أجمع ما تبقى من حكاياتي
أعيد ترتيب النجوم
التي تشظّت في ليالي الغياب
وأزرع بستاناً من صمتكِ في قلبي.

حتى حين ..
كانت رياح الغربة
تئن بين أطراف الزمن
كنتِ تصمدين...
كصخرةٍ تعرف أنّ البحر
لن يبتلعها أبداً.

كنتِ آخرَ ناجٍ منّي
ولم أعد أطلب شيئاً سوى أن أحتفظ بكِ
كي لا أضيع بعد اليوم
كي لا أصير مجرد ذكرى
تجوب الأجساد الهاربة.

كنتِ آخرَ ناجٍ منّي
وفي صمتكِ أقرأ قصائد لم تكتب
وأحلاماً لم تولد
وأوجاعاً لم تكتمل
كأنكِ تدركين أني بدونكِ
سأغرق في بحر بلا شواطئ.

كنتِ آخرَ ناجٍ منّي
ولم يكن لي وطن بعدكِ
ولا صديق
ولا أمل
سوى أن أحتفظ بكِ
كالكتاب الأخير في مكتبة محروقة.

كنتِ آخرَ ناجٍ منّي
حتى حين نمتِ
ظللت أراقب ظلكِ
يتلوّى بين الفجر والمساء
كأنّي أقرأ المستقبل
في خفقات قلبك المستمرة.

كنتِ آخرَ ناجٍ منّي
وفيكِ تعلمت أنّ البقاء
ليس في المدن ..
ولا في الكلمات ..
ولا في الحنين ..
إنما في عينين ..
تستحيلان صخرةً تحميني من الزوال.

رحيلٌ وأملٌ متجدّد

ذاتُ رحيلٍ تصاعدتْ بها الأحزانُ
وأعيا الفراقُ قلباً عانى وجراحاً
كأنّ الليل امتدّ فوق العمر
وحبس في صدورنا صمتاً طويلاً
يئنُّ من كثرة الانتظار.

أيها الحزنُ، ارحلْ
ولا تعدْ
فالأمل ينتظر خلف الزوايا
بابه ما زال مفتوحاً
وأشعة الفجر تسللت لتداعب روحي
كما لو أنها تعدني بالغد.

فاهمِل معنى الفراق
واحتضن هدوءه
فلا شيء يدوم كما لو أنه مجرد وهم
وتذكر أنّ الرحيل
جزء من أنفاس الحياة
فابتسم
ولا تدع دمعةً تسقط بلا معنى
حتى لو كان قلبك يئنّ من الألم.

على ضوء الأمل، سرّ
اتبع خطواتك نحو الغد
فلا شيء يستحق العتاب
ولا التذمر
فالدموع تجف
والألم يذوب كما يذوب الصقيع تحت الشمس.

تبقى الذكرى
كشرفة تطلّ على زمنٍ مضى
تدعوك لتسكن بين طياتها
كلما اشتدّ الحنين
وشدّ الشوق أنفاسك
فتجد نفسك هناك، بين يدي الفراق
تبتسم، وتقول وداعاً بلا تردد.

ولا تنس أنّ الله معنا
قريب كنسيم الليل
يرشد خطانا، ويزيح عنا الكدر
كما يزيح الغيم عن وجه الشمس
ويعلمنا أنّ الرحيل ليس نهايةً
بل بداية لطريق لم نعرفه بعد.

فلا تحزن، يا صديقي
ولا تيأس
فالحياة مليئة بالفرص
بالأمل
بالنور الذي يتسلل من بين ثنايا الغياب
قد يكون الرحيل
بداية لفرح جديد
لسعادة خفية
لكل صرخة لم تسمع
لكل حلم تأخر
لكل قلب تعلم أنّ الانتظار
هو لغة الحب والصبر.

وفي حلول المساء
تتسلل أشعة الغروب
فتذكرنا أنّ الفجر قريب

وكل خطوة نحو الغد
قصيدة تكتبها أرواحنا على جدران الزمن
تغني للأمل
وتحفظ في طياتها ابتسامةً
لم نفقدها بعد
حتى لو ابتعدت كل المدن
وغابت الوجوه
وتركنا الفراق وحيدين.

فامضِ، بلا خوف
واحتضن رحيلك ..
كما يحتضن النهر صمت الصخور
دع قلبك يفتح نافذة جديدة
ليدخلها الضوء
ولتستقبلك السعادة في صباح لم يولد بعد
وفي مساء لم تنطفئ شمسه
لتكتشف أنّ كل رحيل
دعوة للحياة
وكل وداع
وعد باللقاء.

فنجانكِ صباحي

فنجان قهوتي يحكي عنكِ
عن جمالٍ يفيض في عينيكِ
كالألوان التي تتراقص في الضوء
كأنّ الشمس تعود لتشرق فقط لأجل ابتسامتك.

أنتِ الصباح الذي يفيض على المدينة
النهار الذي يغني على نوافذ القلوب
أنتِ الهواء ..
الذي أتنفسه قبل أن أفتح عيني
وأنتِ الصوت ..
الذي يهمس في قلبي قبل أن أنطق أي كلمة.

في عينيكِ أجمل الأحلام
تتراقص الحروف بين أناملي
ويحلو مزج القهوة مع حلاوة نظرتك
ويتلألأ الحب بين كلماتي
كما لو أنّ العالم بأسره صُمّم
ليجمعنا في لحظة واحدة.

أنتِ الصباح وأنا الشاعر
أكتب على حواف فنجانكِ
أعدّق في نقاء الضوء بين رموشكِ
وأسترقّ السطور من صمتكِ
لأجعل منها قصيدة تطير فوق كل المدن.

كل ابتسامة منكِ تنير الدروب
وكل خفقة من قلبكِ تغني للصبح
فلا تحرمينا من لمحة من عينيكِ

ولا تحرمينا من رائحة القهوة التي تصنعينها
لتغدو كل لحظة صباحاً جديداً
تتفتح فيه الزهور على وقع خفقات قلبك.

عيناكِ تفتحان نافذة على العالم
تدعان الكلمات للرقص
وتمنحان الصمت ألوانه
كل الحروف التي كتبتها
وكل الشعر الذي لم يكتب بعد
لا يكتمل إلا بين خفقات قلبكِ.

أنتِ الصباح الجميل حقاً
حتى لو غابت الشمس عن السماء
يبقى نورك يتسلل في أهدابي
كظلّ يراقبني حين أمشي بين الذكريات
ويهمس لي: الحب باقٍ
والقهوة طازجة
والأمل حاضر
والقلوب تصنع المعجزات كل يوم.

فنجانكِ صباحي
وفيه أسرار العشق
وفيه كل الأمل والحنين
وفيه ابتسامتكِ التي تضيء عتمتي
وتجعل كل يوم يبدأ كما لو أنه عيد.

أجلس أمام فنجانكِ
أقرأكِ كما يقرأ كتاب
أتعلم من صمتكِ أصداء الشعر
وأرسم على حواف القهوة وجوهكِ
لتبقى ذكراكِ خالداً

كأول صباح أحببتكِ فيه.

أنتِ كل الصباحات
كل القهوة
كل الأحلام
كل الحروف
كل الكلمات التي لم تقال بعد
كل نور يمر بين أهداب الليل والنهار.

وحتى لو رحلتِ
يبقى فنجانكِ صباحي
يبقى عبقكِ في الهواء
يبقى صوتكِ في قلبي
ويبقى حبكِ شعاعاً لا ينطفئ،
يغني لكل الكلمات
ويزرع في روحي ألوان الحياة
كما لو أنك وحدكِ من يستطيع أن يصنع الصباح.

خذوا كأسكم... فحبيبتي قتلت

خذوا كأسكم...
فحبيبتي قتلت
وصارت المدينة تبكي بلا أصوات
والليل يجرّ جناحيه على وجهي
والريح تهمس باسمها في كل زاوية.

كوباني...
لم تكن مجرد حجرٍ على الفرات
كانت قلباً ينبض في صدورنا
كانت النخلة التي لا تعرف الانحناء
كانت الطفلة التي تحمل ضحكتها على أكتاف الغيم.

قتلوها...
وصار الدخان يمشي بين الشوارع
يصنع من الرماد صورتها
ويحفر من الصمت قصيدةً لم تكتب
ويصنع من كل زهرةٍ في الحي صرخةً لم تسمع.

أيتها التي قتلت...
كنتِ أكثر من امرأة
كنتِ المدينة بأكملها
كنتِ الأمل في عيون الأطفال
كنتِ الشمس التي تشرق بلا موعد
كنتِ المطر الذي يغسل صخور كوباني
كنتِ الصوت الذي لا يمكن أن يسكت.

خذوا كأسكم...
أما أنا، فسأحتسي دموعها
وأشرب الحزن الذي تركتموه خلفكم

وأرسم من الغياب وجهاً لا ينسى
وأكتب قصيدتها بين أصابعي
كي يعرف العالم أن الحب الذي يقتل
أقوى من أي جريمة.

قتلوها...
وصارت الأزقة خاوية
والشمس تطفئ نفسها خجلاً
والنهر يبكي كلما مرّت عبره الذكرى
والطيور تهرب من السماء
وتبحث عن مأوى للروح.

يا كوباني...
كل حجر هنا يصرخ باسمها
وكل زهرة تبكي دماً
وكل نافذة تحمل وجهها
وكل بيت يحمل رائحة الغياب.

أنا الآن أحيا معها في كل مكان
في كل ضوء يتسلل من خلف السحاب
في كل صوت للريح بين النخل
في كل دمعة تخط طريقها على الحجر
أحيا معها
كي لا تموت قصيدتها
كي لا يموت الحلم الذي قتلتموه.

خذوا كأسكم...
لكن الحب الذي اغتلتموه
لا يعرف الحدود ..
ولا يعرف القبور ..
ولا يعرف الخوف ..

يبقى في الصدر شعلةً لا تنطفئ
ويبقى في الكلمات نهراً يجري بلا توقف
ويبقى في كل عين طفلةً لا تنسى.

قتلوها...
ولكن كوباني تعود
تعود في صرخة الطفلة
تعود في النخلة التي لم تنحني
تعود في قلب يعرف الغياب جيداً
وتعود في القصيدة التي لم تكتمل.

خذوا كأسكم...
أما أنا، فسأكتبها في كل شارع
سأزرع ذكراها في كل حقل
سأروي الحنين من دمها
وسأجعل العالم يسمع صرختها
كي يعرف أن الحب الذي يقتل
أقوى من أي جريمة
وأطهر من أي كأس على قبرها
وأجمل من أي نسيان.

شكراً لكم... قتلتم سُكرةَ الكلمات

شكراً لكم...
لأنكم، حين مررتم ..
تركتم في فمي طعمَ الرماد
وفي حنجرتي وطناً بلا نوافذ
وفي دمي سؤالاً
لا يجيب عنه سوى الصدى.

شكراً لكم...
قتلتم سُكرةَ الكلمات بين ضفّتي القصيدة
فصارت حروفي
تمشي على عكاز الريح
وتسأل ظلَّها المرتجف:
من الذي أطفأ القمر
قبل أن يكتمل بكاءُ السماء؟

أيا أمةً
علّقت قلبها على مسمار الخوف
ومضت تنام في جثة التاريخ
أيا أمةً
فعلتم كلَّ ما بوسعكم
لتقتلوا الياسمين
وتكسروا مرآة الحلم
وتهدموا جدار الحنين
حجراً... حجراً...
حتى صار القلبُ
خرابةً مهجورة
تتخذها الغربان وطناً.

شكراً لكم...
لأنكم علمتم النهر
كيف يخون ضفّتيه
وكيف يصير الماء
سكيناً بارداً
في خاصرة العطش.

شكراً لكم...
لأنكم سرقتم من الليل نجومه
وتركتموه أعمى
يتلمس طريقه المرتبك
في عيون الأمهات.

كنتُ أكتب...
وكانت القصيدة شجرةً
تورق كلما ابتسمتُ
لكنكم مررتم كريحٍ بلا قلب
فجفَّ الندى في أصابعها
وسقطت أوراقها
كأسماءٍ منسية
على باب المنفى الطويل.

شكراً لكم...
لأنكم جعلتم قلبي
يتيماً على عتبة الضوء
وغريباً حتى عن ظلّه
وصار اسمي
مجردَ حقيبةٍ مهملة
نسيها المسافرون
على رصيف الوداع الأخير.

أيا أمةً
كانت تزرع الشمس في دفاترها
كيف صارت الآن
تزرع المقابر
في صدر النهار؟

أيا أمةً
كانت تغنّي للقمح
كيف صار القمح
يرتجف خوفاً من أصواتكم؟

شكراً لكم...
لأنكم حولتم القصيدة
إلى جرحٍ مفتوحٍ على الفراغ
وحولتم اللغة
إلى دمعةٍ ضائعة
لا تجد خداً
لتسقط عليه.

كنتُ أؤمن
أن الكلمات خبز الفقراء
وأن الحروف
وطنٌ صغير
يحمله المنفي في جيب الحنين
لكنكم سرقتم حتى الجيوب
وتركتمونا
نرتجف عراةً
في برد المعنى.

شكراً لكم...
لأنكم جعلتم الياسمين

يشكّ في عطره
ويخاف أن يزهر
في حضرة البنادق.

شكراً لكم...
لأنكم قتلتم فينا
آخر ما تبقّى من سماء
وتركتمونا
نمشي بلا ظل
ونحلم بلا نوم
ونبكي بلا صوت.

لكن...
رغم كل هذا الخراب
رغم كل هذا الرماد
سيخرج من بين أصابعنا
حرفٌ
لم تكسروه
وسيخرج من بين جراحنا
قمرٌ
لم تلوثوه.

سنكتب...
ولو بالحجارة
سنكتب...
ولو بدموع الأمهات
سنكتب...
ولو على جدار الغياب.

لأن القصيدة
أقوى من موتكم

ولأن الياسمين
يعرف كيف يعود
من مقابر الريح.

وشكراً لكم...
لأنكم، دون أن تدروا
تركتم لنا
هذا الألم النبيل...
لنصنع منه
وطناً
لا يستطيع أحدٌ قتله.

كنْ وفيّاً للرحيل

عندما تريدُ الرحيلَ
فارحلْ كما يرحلُ نجمٌ
أدى واجبه كاملاً في الظلام
ثم انطفأ
دون أن يتركَ اعتذاراً للسماء.

لا تتركْ ظلَّك معلقاً على جدارِ قلبي
كمعطفٍ نسيَه غريبٌ
في بيتٍ لم يعد يعرفُ الطريقَ إليه
ولا تتركِ اسمك نصفَ حيٍّ
في فمي
كي لا أظلَّ أتهجاك
كلما حاولتُ أن أنسى.

ارحلْ...
لكن ارحلْ كاملاً
فالأنصافُ لا تنقذُ أحداً
ونصفُ الغياب
أقسى من حضورٍ يحتضر.

كنْ واضحاً
كجرحٍ يعرفُ اسمَ السكين
كنْ صريحاً
كالموتِ حين لا يخطئُ العنوان
ولا تقل: ربما
فال«ربما»
وطنٌ مؤقت
لقلوبٍ لا تملكُ شجاعةَ الخراب.

عندما تريدُ الرحيلَ
لا تلتفتْ
فالالتفاتُ
خيانةٌ صغيرة
لشجاعةِ النهاية
وارتباكٌ لا يليقُ
بمن اختارَ الغياب.

اتركني
كما يتركُ البحرُ آخرَ موجةٍ على الرمل
ثم يمضي
دون أن يعدها بالعودة.

لا تتركْ صوتك في الوسائد
ولا أنفاسك في المرايا
ولا ظلَّ يديكَ على كتفي
فالأشياءُ التي تبقى
تصيرُ خناجرَ بطيئةً في الذاكرة.

ارحلْ ..
كي أتعلمَ كيف أعيشُ بلاك
لا ضدك
بل خارجك
كما تعيشُ الأرضُ
بعد أن تفقدَ مطراً عزيزاً.

ارحلْ ..
كي أستعيدَ حدودي
كي أعرفَ أين ينتهي اسمك
ويبدأ اسمي
كي لا أكونَ

سلالةَ حنينٍ
إلى رجلٍ لم يعد هنا.

لا تخفْ عليّ
فالقلوبُ التي تنكسرُ
تتعلمُ شكلها الحقيقي
والأرواحُ التي تتركُ وحيدةً
تكتشفُ أنها
كانت دائماً
وطناً لنفسها.

عندما تريدُ الرحيلَ
فارحلْ كما يليقُ برجلٍ
أحبَّ يوماً
لا كما يليقُ بخائفٍ
يتركُ قلبه خلفه
كي يتعذبَ بدلاً عنه.

كنْ وفيّاً للرحيل
كما كنتَ وفيّاً للحلم
ولا تمنحني أملاً يتيماً
كي أتسولَ انتظاراً بلا نهاية.

ارحلْ...
فبعضُ الغيابِ
رحمة
وبعضُ النهاية
عدالة
وبعضُ الرحيل
حبٌّ
لكن بصيغةٍ أخرى.

وعندما تغلقُ البابَ خلفك
لا تفكرْ بي
فأنا سأكونُ قد بدأتُ
تدريبَ قلبي
على النجاة.

سأجمعُ ما تبقّى مني
كما يجمعُ الناجي
أسماءه من تحت الركام
وسأمضي...
لا لأنني أقوى
بل لأنك
رحلتَ كاملاً.

وهذا
أعدلُ
ما يمكنُ أن يحدث.

كأنكِ... قيامةُ المعنى

كأنكِ كنتِ معي...
لا كجسدٍ يجاور جسدي
بل كقيامةٍ
تنهض في داخلي
كلما سقطتُ من اسمي.

كأنكِ كنتِ هناك
حين كان الليلُ
يجرُّ البلادَ إلى عتمته
ويعلق قلبي
على مسمار السؤال.

تطوفين بين الجراحِ القديمة
كما يطوف الضوءُ
حول خرابٍ
ينقب عن معناه.
تسمّين الندبةَ نجمةً
وتسمّين الخسارةَ درساً
وتهمسين للألم:
كن أقلَّ قسوةً...
فهذا القلبُ
لم يخلق للحرب.

كنتِ تسكبين النهارَ على وجعي
لا شمساً عابرةً
بل يقيناً بأن الضوء
حقٌّ مؤجَّل.
فكان قلبي

يتدرّب على الحياة
كأنه يتعلمها لأول مرة.

وتبقى يدكِ فوق فمي...
لا لتمنع الكلام
بل لتنقّي اللغة
من فائض النزف.
كأنكِ تقولين:
ليس كلُّ ما يقال حقيقة؛
الحقيقةُ
ما ينقذنا من السقوط.

كأنكِ كنتِ السلامَ الذي لم يأتِ
السلامَ الذي تأخر
حتى حسبناه خرافة
فلما حضرتِ
انحنى الخرابُ قليلاً
وارتبكت البنادقُ
في صدري.

كأنكِ أنتِ الحقيقة
والباقون
هوامشُ
على دفتر الريح.
أحببتهم
كما يحبُّ العابرُ ظلَّه
لكنني لم أجد فيهم
وطناً
يستريح إليه تعبي.

وكانت يداكِ...

الصدقَ الوحيد؛
الصدقَ الذي لا يحتاج إلى برهان
ولا يخاف من الضوء
ولا يساوم على قلبي
إذا ضاقت الجهاتُ الأربع.

حين تلمسين صدري
ينتظم الكونُ قليلاً
تعود الأشياءُ إلى أسمائها الأولى
ويصير الزمنُ
أقلَّ عداوةً
وأكثر إنصافاً.

كأنكِ كنتِ المعنى
حين تكسرت المعاني
وكنتِ البابَ
حين أغلقت الحياةُ
كلَّ أبوابها في وجهي.

وحين غبتِ
لم تغب امرأة
بل اختلت الفكرة
واختبأ الضوءُ
في جيوب الغيم
وصار قلبي
جملةً ناقصةً
تبحث عن فعلها الضائع.

أناديكِ ..
فيعود الصدى
مثقلاً باسمي

وأفهم متأخراً
أن الغياب
ليس نقيض الحضور
بل امتحانُه الأشدّ قسوةً.

كأنكِ كنتِ معي
كي أتعلم
أن الحبَّ
ليس خلاصاً من الألم
بل قدرةً
على أن نمنح الألمَ
معناه.

وأن يداكِ
لم تكونا مجرد يدين
بل كانتا
الصدقَ الوحيد
في عالمٍ
يكتب أسماءه
بالحبر ذاته
الذي يكتب به كذبه.

وأنكِ...
حتى وأنتِ بعيدة
ما زلتِ القيامةَ
كلما انهار في داخلي
شيءٌ
يشبهني.

يسقطُ الرغيفُ من فمِ التاريخ

ماتَ جائعاً...
لا لأنَّ الخبزَ كان بعيداً
بل لأنَّ الطريقَ إلى الخبز
كان أطولَ من عمره.

يسرقكِ الجرحُ
كما يسرقُ الألمُ
صوتي من بين أحزاني
كأنَّ الحزنَ لصٌّ نبيلٌ
لا يسرقُ
إلا ما تبقّى من الضوء.

ماتَ جائعاً...
وكان الرغيفُ يسقطُ من فمِ التاريخ
كما تسقطُ الكلمةُ
من شفتي شاعرٍ مجهول
لم يجد وطناً
ليصدّق قصيدته.

أيها الوطنُ
لماذا كلما قلتُ: بلادي
ارتجفتْ في صدري
سكينٌ قديمة؟
ولماذا كلما حاولتُ
أن أكتب اسمك
نزف الحبرُ
وتعثّر في دمي؟

مؤلمٌ هذا الوطنُ...

يذبح قلبي
على مهلٍ
كأنه يتلذّذُ
بتقطيع الحلم
إلى حصصٍ متساوية
بين الجوعى.

ضائعٌ هذا الوطن...
كطفلٍ أضاع أمَّه
في زحام الحروب
فصار يناديها
باسم الخراب.

ماتَ جائعاً
وكان يمكن أن يعيش
لو أنّ الرغيفَ
لم يتحول إلى نشيد
ولو أنّ النشيدَ
لم يتحول إلى خطاب
ولو أنّ الخطابَ
لم يتحول إلى مقبرة.

يا وطناً
يتقاسم أبناءه
كما تتقاسم الذئابُ
ظلَّ شاةٍ مذبوحة
أيّةُ شمسٍ
ستغسل هذا الدم
عن وجه الصباح؟

ماتَ جائعاً...

وكانت عيناه
تبحثان عن كسرةِ عدل
لا عن كسرةِ خبز.
فالخبزُ
يموت إذا غاب العدل
والعدلُ
يموت إذا صار الوطنُ
شركةً
لتوزيع الحزن.

يسرقني الجرحُ منك
كما تسرق المنافي
لغةَ العائدين.
أمدُّ يدي إلى سمائك
فلا أجد
سوى غيمةٍ
تتدرّب على البكاء.

أيُّها الوطنُ ..
كم شاعراً يجب أن يموت
كي يتعلم اسمك
كيف ينطق بلا خوف؟
وكم طفلاً
يجب أن ينام بلا عشاء
كي يشبع التاريخ
من دمنا؟

مؤلمٌ هذا الوطن...
كلما حاولتُ أن أحتضنه
اتسع بين ضلوعي
قبر.

وكلما قلتُ: سأبقى
همستْ لي الريح:
البقاءُ
رفاهيةُ من لا يجوع.

ماتَ جائعاً ..
لكنه ترك لنا
سؤالاً
ينام تحت وسائدنا:
من سرق الرغيف
من فم النهار؟
ومن علق الشمس
على باب التجار؟

ضائعٌ هذا الوطن...
لا لأنّ الخرائطَ أخطأت
بل لأنّ القلوبَ
لم تعد تعرف
كيف تتسع لقلوبٍ أخرى.

ماتَ جائعاً...
وما زال رغيفُه
يسقط من فم التاريخ
وما زالت كلمته
تتعثر في حنجرة شاعرٍ
يحاول أن يصرخ:

هذا الوطنُ
ليس لنا
إن لم يكن لنا
الخبزُ
والكرامةُ
والضوء.

وإذا ابتعدتُ عنك يوماً
فلا تظنّ أنني رحلتُ
سأصير ظلاً خفيفاً
يمشي في هوامش دفاترك
أبحث عن اسمي
في ارتجافةِ قلمك
وأقيم بين فاصلتين
لم يجمعهما المعنى بعد.

سأختبئ في البياض
الذي يسبق ولادةَ الكلمة
وأصير السؤالَ
الذي يربك الحبر
قبل أن يطمئنّ إلى شكله الأخير.

فإن فتحتَ كتاباً
وشعرتَ أن الصفحةَ
تتنفس ببطء
فاعلم أنّ قلبي هناك
يحاول أن يكتب من جديد
لا بحروفي
بل بصوتك.

يسقطُ الرغيفُ من فمِ التاريخ
فتنطفئُ في العيونِ قناديلُ الصباح
ويتمددُ الجوعُ حتى يصيرَ وطناً من فراغ.
هنا، لا تروى الحكاياتُ بالحبر، بل بفتاتِ الخبز
ولا تقاسُ الأعمارُ بالسنين، بل بعددِ الليالي التي نامت بلا عدلٍ
وبعددِ القلوبِ التي أطفأتْ جوعها بالصبر.

في هذه الصفحات، يتعثّرُ الضوءُ بحذاءِ طفلٍ يبحث عن كسرةِ معنى
ويتعلمُ القلبُ أن يقاومَ بالسؤال
حين تعجزُ الأصابعُ عن الإمساكِ بما تبقّى من النهار.
ستسمعونَ التاريخَ وهو يسعلُ من غبارِ الصمت
وترونَ الكلماتِ تمشي حافيةً فوق حدِّ السكين
نازفةً، لكنها تصرُّ أن تتركَ للحلمِ نافذةً لا تغلَق.

هذا كتابٌ لا يطلبُ شفقةً
بل يرفعُ في وجه العتمةِ رغيفاً من نار
ويقولُ، بصوتٍ خرج من عمقِ الجوعِ ولم ينكسر:
إن لم يكن لنا من هذا العالمِ
غيرُ صوتٍ واحد
فليكن صوتَ من يعيدُ الخبز
إلى فمِ النهار
ويعيدُ للإنسانِ
اسمهُ الذي سرقتهُ المجاعة.

صَرخَةُ اللَّيلِ